

مكانة الأباضية في الحضارة الإسلامية

الحلقة الأولى

اعداد
د. محمد صالح ناصر

الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

مكانة الأباضية في الحضارة الإسلامية

الحلقة الأولى

إعداد
د. محمد صالح ناصر

الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

المصادر والمراجع

- * الدكتور إبراهيم عبدالعزيز بدوي ، دور المدرسة الإباضية في الفقه والحضارة الإسلامية . ندوة الفقه الإسلامي ، عمان ، إسرائيل ، 1988 .
- * الدكتور أبو القاسم سعد الله ، حقل في ميزاب ، جريدة الشعب ، ع (1990/6/7) .
- * الشيخ أحمد توفيق المدني مدخل لدراسة الدولة الرستمية ، ملتقى الفكر الإسلامي وراجلان ، 1977 .
- * الشهيد سيد قطب ، أدب الخوارج وفلسفة الخروج ، الشهاب (المصرية ع ، 15 (1948) .
- * الدكتور شكري فيصل ، هموم المسلمين ، رسالة إلى الشيخ بيوض ، مخطوطة من مكتبة محمد ناصر ، (1869) .
- * الشيخ عزالدين التوخي ، مسند الإمام الربيع بن حبيب ، (مقدمة) عمان ، (د . ت)
- * الشيخ سيد عبد الحافظ عبد ربه ، الاباضية مذهب وسلوك ، القاهرة ، 1985 .

- الشيخ علي يحيى معمر ، الاباضية بين الفرق الإسلامية ،
غرداية ، 1987 .
- الأستاذ عبد العزيز المجذوب ، الصراع المذهبي بافريقيا ،
تونس ، 1975 .
- الدكتور عوض محمد خليفات ، الأصول التاريخية للفرقة
الإباضية ، (عمان) دت .
- الدكتور عمربا ، دراسة في الفكر الإباضي . عمان ،
1986 .
- الأستاذ مالك بن بني ، في ضيافة ميزاب الثورة الافريقية ،
الجزائر ، 1968 . ترجمة ، محمد ناصر ،
- الدكتور فهمي هويدي ، أزمة الوعي الديني ، اليمن ،
1989 .
- الدكتور محمد ناصر ، خطاب مفتوح إلى وزير الشؤون
الدينية أعضاء ، ع ، 1989/6/1 . الاباضية ، المذهب ،
والتصور والواقع ، السلام ، ع ، (19 - 1990/12/26) .
- الشيخ احمد بن حمد الخليلي ، الحق الدامغ .

فهرس الكتاب

7	 مقدمة
23	1 الحق الدامغ ، الشيخ احمد بن حمد الخليلى
	2 الفرق بين الإباضة والخوارج بقلم : الشيخ أبو
53	إسحاق إبراهيم أطفيش
	3 دور المدرسة الإباضية في الفقه والحضارة الإسلامية
67	بقلم : الدكتور إبراهيم عبد العزيز بدوي.....
103	4 حفل في ميزاب بقلم : الدكتور أبو القاسم سعد الله
	5 مدخل لدراسة الدولة الرستمية بقلم : الشيخ أحمد
117	توفيق المدني
	6 أدب الخوارج وفلسفة الخروج ، بقلم : الشهيد
135	الإمام سيد قطب
	7 رسالة إلى الشيخ بيوض عن هموم المسلمين بقلم :
145	الدكتور شكري فيصل
	8 مسند الإمام الربيع بن حبيب بقلم : الشيخ عز الدين
155	التنوخى
	9 الإباضية مذهب وسلوك بقلم : الشيخ عبد الحافظ
171	عبد ربه

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

وراء هذا الكتاب الذي أود أن يفتح القارئ المسلم له قلبه دوافع ذاتية وأخرى موضوعية لعل أقوالها هذا الود العميق الذي يملأ جوانحي لإخوة الإيمان أينما كانوا وحيثما وجدوا ، فليس أعز علي من محبة خالصة لله تربطني بأخ في الله رباط تعاون وبر وتقوى وليس رباط منفعة دنيوية أو مصالح آنية . لا تسجنها الحدود الاقليمية عند حيز جهوي أو قطري ، ولا يكبت جذوتها انتماء لمذهب أو قبيلة . هذه أولها .

أما ثانيها فهي مشاعر الألم والاحباط التي ايقظتها في أعماق نفسي تلك الحوادث الأليمة التي شهدتها منطقة وادي ميزاب في هذه السنين الأخيرة (حوادث غرداية 1985 ، حوادث الفرارة 1989 ، حوادث بريان 1990) هذه الحوادث المفجعة التي أمسك فيها الجهل ، والتعصب ، والتحزب زمام الأمور فساق الإخوة المسلمين الى التصارع مما أدى بأحد الأطراف إلى استحلال الدم ، والمال ، والعرض وهي أغلى ما يوصي الإسلام بقدسيته .

لقد رأيت بعيني في تلك الظروف المؤلمة كيف يعمي التعصب الأبصار والبصائر وكيف يدفع الجهل إلى التعدي على الحرمات في وضح النهار ، لا لشيء إلا استجابة لنزعة عرقية أو طائفية أو

مذهبية ، وما إلى ذلك من نوازع الشيطان التي نهانا ديننا الحنيف
أن نقاد لهاها ، ونصرف وفق رضاها .

ولقد آلمني أشد الألم ما قرأته في بيان منسوب إلى أعيان المالكية
بمدينة بريان (إن صدقا وإن كذباً)* فقد تحسست في ذلك البيان
ادران عصور الانحطاط والتخلف مترسبة في أعماق بعض النفوس
المريضة التي لم يستطع الدين الإسلامي أن يزيل غشاوتها .

فإن الذي يذهل المرء حقاً ، ولا يكاد يصدقه عاقل ونحن في
فورة الصحو الإسلامية وضحاها أن ينحدر مستوى الوعي
الديني والوطني إلى هذه الدركة التي تبيح لبعض النفوس حمل
السلاح في وجه أخ مسلم تحت شعار «الجهاد في سبيل الله» فأبي
جهاد هذا الذي يرضي الله بقتل الأبرياء ، ونهب أموالهم
وممتلكاتهم ، وآية محنة هذه التي تطحن المسلمين حتى باتوا لا
يفرقون بين الألفاظ ومعانيها ، وبين الشعارات ومقاصدها ؟

أيمكن أن نساوي بين مقعد في البلدية أو في الولاية ، وبين
قطرة دم واحدة لنفس مسلمة ؟

ومما لا شك فيه أن المتصرف على هذا النحو السافر الكافر
يضاد دعوة الله في كتابه الكريم حيث يقول ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ
فَاصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ .

لقد نظرت إلى كل ذلك من خلال الدموع ، وتفكرت في أبعاد
تلك الفتنة والحسرة تملأ القلب ، لأنني أدركت كما لم أدرك من قبل

(*) بنظر مجلة الوحدة (الجزائرية) العددان : 476 . 749 . (1990)

إلى أي حد — نحن المسلمين — بعيدون عن تعاليم ديننا الحنيف ، متناقضون بين ما نتلوه في صلواتنا صباح مساء وما نفتكره بأيدينا قبل ذلك وبعده .

وتيقنت كما لم أتقن من قبل إلى حد أصبحت فيه الأمة الإسلامية كالريشة في مهب الريح العاصف تتطاوح بها الأهواء الداخلية والخارجية ، وتستبد بها شهوات الدنيا لتبدها يمناً ويساراً .

إن الذي حدث أو يحدث في وادي ميزاب جزء لا يتجزأ مما حدث أو يحدث في لبنان وإيران أو مصر والسودان ، بل هو جزء لا يتجزأ عما يحدث في العراق والخليج .

إن الناظر في تحولات العالم الإسلامي في إطار الصحوة الإسلامية الأخيرة يدرك بأن الصحوة لن تؤتي ثمارها إلا باصلاح ذات البين بين المسلمين الذين يكوّنون هذا المجتمع الإسلامي المتلاطم العريض وكل مشروع حضاري نهايته الخيبة والفشل ما لم يبن أسسه على التسامح والود والمحبة بين أفرادها ، ولن يصل غايته إن لم يمهّد لطريقه وخطواته بالاحترام المتبادل والتقدير الكامل بين طوائفه وأحزابه ، مادام الهدف واحداً وهو بناء مجتمع إسلامي متطور في ظل راية التوحيد .

ولعل الواقع المرير الذي نشهد ماسيه من حين إلى آخر هنا وهناك يعود إلى أسباب سياسية ودينية في الأغلب الأعم ، لقصور نظر لدى الساسة والمتزعمين وذلك ما جعل أحد الكتاب الإسلاميين يقول وله الحق «إن السؤال الذي ينبغي أن يشغل به المصلحون والمخلصون هو : كيف يمكن أن توظف القيم الدينية لتكون ركائز

للتقدم ، والنهضة ، والتحرر ، لا أن تصبح سبباً إلى تكريس التخلف ، والتحجر ، والتقهقر فإنه عوض أن يتصارع المسلمون بدافع مذهبي أو حزبي كان الأولي بهم أن يوجهوا قواتهم الى عدوهم المشترك عدو دينهم وأمتهم . وقرأتهم ونبيهم . فإن المعركة الحقيقية شئنا أم أبينا ، أدركنا ذلك أم لم ندركه ينبغي الا تكون بين المسلمين مذاهب واحزابا ، وإنما هي صراع حضاري بين كفر وإيمان ، وتنافس محموم على السيادة والسيطرة بين حضارة الهلال وحضارة الصليب ، حتى وإن حاول اعداء الإسلام داخلا وخارجاً أن يَطْبَعُوا هذا الصراع بغير هذا الطابع ، وأن اتخذوا أساليب تكتيكية سياسية واقتصادية أخرى . فإن لم يدرك المسلمون هذا الواقع ولم يستبطنوا خفائاه فإنهم ما يزالون في توجيه اسلحتهم الفتاكة ضد بعضهم البعض متغافلين عن عدوهم الأساسي الذي يدس السلاح في أيديهم ، ويؤلب الحكام الفجرة عليهم ، ليتحكموا في منابع الثروات المادية والأدبية ، ويخذلوا قواهم الاقتصادية والروحية .

إنهم يَئْتَسِمُونَ للمسلمين في ود كاذب ، وتملق منافق ليوجهوا وجوهنا قبل البيت الأبيض ، والساحة الحمراء وليصرفوا وجوهنا عن الكعبة ، والقبة الخضراء ، وأولى القبلتين ، وليس أدل من هذه المؤامرة التي تجلّت واضحة وضوح شمس الهاجرة في سماء الجزيرة العربية ، فيما يطلقون عليه اليوم (أزمة الخليج) وإن أخوف ما نخافه أن ننظف إلى عدونا الحقيقي ونحن نردد في حسرة وندامة «إنما أكلت يوم أكل الثور الأبيض» فإن نفسا مسلمة واحدة تموت في ساحة المسجد الأقصى ، أو في رمال الجزيرة ، أو في واحات غرداية ، أو

على شاطئ النيل . لى خسارة عظى للمسلمين جميعهم .

* * *

لقد كان هذا الواقع المرير إذا حافظاً قوياً دفعنى إلى الإسراع بإيجاز هذا الكتاب الذى لى فى به جهد سوى الأعداد والجمع والترتيب ، وإنى لآمل أن يسهم فى تصحيح بعض الأفكار الشاذة التى ما فتئت تطالعنا بها الصحف أو الكتب هنا وهناك . وإن أغلبها جهل فاضح بمبادئ التاريخ الإسلامى . أو هى اتهامات باطلة لغرض دنيوى أو لنزوة جاهلية .

ولكونى أحد المتذهبين بالمذهب الإباضى فإنى حريص دوماً على متابعة تلك الكتابات صحيحها وفاسدها ، صوابها وخطئها . وقد تبين لى أن السبب الأكبر فى نشر المزاعم الباطلة فى حق (الإباضية) إنما هم كتاب الفرق الإسلامية القدامى من أمثال البغدادى والشهرستانى ، وابن حزم . وحتى الآن شعري لم يسلم من بعض ذلك .

وإلى جانب أولئك نجد بعض الفقهاء المتعصبين من غير الإباضية أو من الإباضية أنفسهم ، فقد ساعد بعض الفقهاء من أصحاب النظر القاصر الذاهلين عن واقع الأمة الإسلامية وما تستدعيهم مشاكلها من تراث وبعد نظر عن الإنساق وراء بعض الخلافات الفقهية التى ليست بذات بال لأنها فروع وليست أصولاً كما سيقف عليها القارئ الكريم بنفسه من خلال فصول هذا الكتاب .

وما أشبه أولئك الفقهاء بالأمس ببعض الدعاة المتطرفين اليوم الذين يتخذون المنابر منابر يدفعهم إلى ذلك غرور وسذاجة فأسأؤوا

إلى هذه الأمة من حيث يظنون أنهم يحسنون صنعا ، وافتوا عن جهل وهم لما يميزوا بين أصول الدين وأصول الفقه . وحشروا أنوفهم في قضايا وجزئيات تاريخية دقيقة كحد السيف وهم في غنية عن إثارتها والتنقيب عنها ، وكان الأولى بهم أن يتأسوا بالائمة المهتدين الذين قال ورعهم «تلك دماء طهر الله منها أيدينا فلنطهر منها ألسنتنا ، وكان ايلأجدر بهم أن يستحضروا في وعظهم الآية الكريمة ﴿ تلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾ ، وكان من الحكمة وبعد النظر أن يسارعوا إلى ضم الشمل ، وجمع الشتات بالتحاور العلمي الهادىء ورفع كل ذلك إلى مجالس الخاصة من العلماء المتخصصين ، ولا ينزلوا بقضايا الخلاف إلى أوساط العامة والمبتدئين . على أن هذا الواقع المؤلم لا يجعلنا نرتاب لحظة واحدة في أصالة هذه الأمة وخيريتها لأن الذي حكم في ذلك كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد وأن سلوك بعض المسلمين لا يمكن أن يشككنا في مبادئ الاسلام السامية مهما كان سلوك بعضهم قاسياً ، وأن على المسلمين ألا يياسوا من إصلاح ذات البين وتجاوز الخلافات والصراعات بكل الوسائل الممكنة المادية والأدبية ، الفردية والجماعية ، وأن العمل في هذا الصدد لن ينجح ما لم يكن عملاً متواصلاً على جميع المستويات الإسلامية حكاماً ومحكومين ، دعاة ومدعوين ، وإن مجالاته تنوسع إلى كل الميادين السياسية ، والثقافية ، والاقتصادية ، والاجتماعية .

(2) وأن لا يدفع شبابنا إلى الارتغاء في أحضان الاحزاب اللادينية .

إن العمل الاسلامي في هذا المجال ينبغي أن يكون استراتيجية واسعة تبدأ من الناشئة الاسلامية في المدارس وتتطور معهم في الثانويات والجامعات ، وتتوسع لتشمل كل مجالات الإعلام المرئية والمسموعة بكل وسائلها وبشتى طرقها .. الكاسيت الفيديو .. الصور .. كتاب الجيب .. وغير ذلك .

ويتعاون في هذا كل المسلمين الصادقين ، وإن دور علماء الإباضية لا يقل مسؤولية عن غيرهم إن لم يفقه ، لأن الحقيقة يكشفها أصحابها . ورب الدار أدري بغرفة وردهاته ، فقد أثبتت التجربة التي قام بها المرحوم الشيخ علي يحيي معمر (الليبي ت : 1980) نجاحها ، وقدمت ثمارها . إذ ما تزال كتبه القيمة مصادر أساسية للباحثين المنصفين ، وقد كان لها الفضل في إعانة بعض البحوث الاكاديمية الموضوعية في جامعات الشرق والغرب . وبددت الأوهام ، وأنارت الأفهام .

إن الطريقة التي سلكها الشيخ علي يحيي معمر منذ بداية السبعينيات بكتبه القيمة وهي : الإباضية في موكب التاريخ بأجزائه ، الإباضية بين الفرق الاسلامية ، سمر أسرة مسلمة ، مسلم ولكنه يخلق ويدخن !! .. هذه الكتب فتحت في مجال التعارف الاسلامي بابا واسعا وقُربت الشقة التي كانت متوهمة بين الإباضية وغيرهم من المذاهب الاسلامية الأخرى . وبددت كثيرا من المعلومات الخاطئة التي كانت عالقة بهم . وقد لمسنا أثر ذلك عملياً في كثير من المؤلفات المعاصرة المعنية بالفقه ، والعقيدة ، والتاريخ .

وما من شك في أن جهود الشيخ علي يحيي معمر واخلاصه وإيمانه كان وراء كل هذا النجاح الذي نسأل الله أن يؤجره عليه .

فقد كان الشيخ مفتوناً بحب اخوانه المسلمين أينما كانوا من أرض الاسلام ، داعياً دوماً إلى التضامن والتراحم . مطبقاً مبادئه الثلاثة المعروفة وهي : المعرفة ، التعارف ، الاعتراف .

وإذا كانت تلك هي جهود الشيخ علي يحيى معمر في المغرب الاسلامي ، فإن جهوداً عظيمة أخرى ما فتئت تؤتي ثمارها الخيرة في المشرق الاسلامي والخليج بفضل إخلاص الشيخ أحمد بن حمد الخليلي المفتي العام لسلطنة عُمان فقد دأب الشيخ منذ سنوات على العمل في هذا الاتجاه بالدروس ، والمحاضرات ، وبالمؤلفات ، عن طريق الكاسيت ، والفيديو ، والأحاديث المذاعة . وقد كان من أبرز أعماله سَعْيُهُ المشكور إلى عقد ندوة الفقه الاسلامي المتعقدة بمسقط في أبريل سنة 1988 ، فقد كانت تلك الندوة أول خطوة ميدانية ثابتة في التقريب بين المذاهب الاسلامية ، والتعريف بالفقه الاباضي ودوره في الحضارة الاسلامية ، بعيداً عن التهريج والأضواء ، وفي منأى عن التعصب والتطرف ، لأن الذين حضروا تلك الندوة علماء أعلام متخصصون يشهد لهم بالعلم والايمان والاخلاص ، وفدوا من كل أنحاء العالم الاسلامي .. يحذوهم الشوق إلى احتضان اخوانهم المسلمين ، ومد ايديهم إلى التعاون على البر والتقوى .

وقد فتحت لنا تلك الندوة إلى جانب ما أُلقي فيها من بحوث هامة عن الفقه الاسلامي — نافذة واسعة نستشق منها هواء الحوار العلمي الهاديء ، وبسطت فراشاً أخوياً وثيراً للتعارف والتحابب من أجل رفع راية التضامن في العالم الاسلامي . وإذا ذكرت جهود علماء الإباضية في هذه السبيل ، فإن الذي ينبغي الا ننساه هو جهود الرواد من العلماء من أمثال الشيخ أبي اليقظان ، (ت 1973)

والشيخ بيوض (ت 1981) والشيخ عبدالرحمن بكلي (ت 1986 ،
والشيخ محمد علي دبور (ت 1981) وغيرهم ، وعلى رأس هؤلاء
الشيخ أبو اسحاق ابراهيم اطفيش (ت 1965) الذي كان نفيه
إلى القاهرة من قبل الاستعمار الفرنسي سنة 1923 خيرا وبركة
للإسلام والمسلمين ، فقد صمد الشيخ في هذه الواجهة صمود
الأبطال ، فشارك في المؤتمرات الاسلامية بالقاهرة وخارجها ونشر
المؤلفات التي تعرف بالتاريخ والفقه الاباضيين ، وساهم مساهمة
فعالة في الجمعيات الخيرية الاسلامية ، وشارك في تأسيس بعضها ،
ورابط مرابطة صادقة في دار الكتب المصرية مصححا لكتب
التراث الإسلامي ، ودار الكتب تعتبر دار إفتاء ثانية ، وامتدى
راقياً يغشاه العلماء والمفكرون والأدباء من كل أنحاء العالم
الإسلامي ، ومن هذه الدار عمل الشيخ على التعريف بالمذهب
الإباضي وبدد بفضل علمه الواسع بالفرق والمذاهب الإسلامية
كثيراً من الأوهام والأباطيل . يحذوه في كل ذلك إيمان صادق إلى
توحيد كلمة المسلمين .

إن هذا الكتاب الذي نضعه بين يدي القاريء المسلم اليوم
ما هو إلا جهد بسيط نسعى من خلاله إلى اغناء تجربة الحوار
والتعارف ، ونبذ الخلاف وتكريس الائتلاف .
ومن ثم فقد تعمدنا ان يضم هذا الكتاب بين دفتيه مقالات
وبحوثاً متعددة لكتاب مرموقين متخصصين في الدراسات
الاسلامية ، توخينا اختيارهم من الشرق الاسلامي ومن غربه ..
من المتمذهبين بالمذهب ارباضي أو المتذهبين بغيره من المذاهب الاخرى
حرصاً منا على أن يطلع القاريء المسلم على ما يقرره الاباضية عن

مذهبهم بأنفسهم من جانب ، كما يستتير بالفكر الاسلامي الموضوعي للمتخصصين في التاريخ ، والفقه ، والأصول ، والحضارة ، من غير الاباضية من جانب آخر ، وحرصنا أيضاً على أن تتنوع البحوث والمقالات في مجالات المعرفة المتعددة : عقيدة ، وفقهاً ، وحضارة ومن هنا فقد وقع اختيارنا على البحوث التالية وقد رتبناها حسب اسماء أصحابها ترتيباً ألفبائياً .

1 — الشيخ أبو اسحاق ابراهيم أطفيش (جزائري) ، ت (1965) : «الفرق بين الإباضية والخوارج» وهو بحث قيم يُوضّح فيه الشيخ أهم الفوارق العقيدية ، والتاريخية ، والفقهية التي تميز الإباضية عن الخوارج ، ويدحض بالحجج القاطعة بعض الأخطاء التي وقعت فيها بعض الكتابات القديمة . وقد سبق نشر هذا البحث في بعض الكتب المعنية بتاريخ الفرق الاسلامية ، وحرصنا على نشره هنا لعلاقته الوطيدة بموضوع الكتاب .

2 — الدكتور ابراهيم عبد العزيز بدوي : (مصري) : «دور المدرسة الإباضية في الفقه والحضارة الاسلامية» وهو بحث قيم يتسم بالموضوعية والتحليل لعالم جليل متخصص في مادة الفقه المقارن ، وكان الأستاذ الباحث قد شارك به في ندوة الفقه الاسلامي المنعقدة بمسقط في أبريل من سنة 1988 . وهو دراسة منصفة لفت فيها نظر العلماء إلى بعض القضايا التي تميز الفكر الإباضي عن غيره في ميدان الفقه الإسلامي ولا بد أن نشير إلى أننا لم ننشر البحث بكامله لطوله ..

3 — الدكتور أبو القاسم سعد الله (جزائري) «حفل في ميزاب»

وهذا المقال هو في الأصل انطباعات سجل فيها الدكتور سعد الله ملاحظاته عن حفل تأبين حضره فأوضح ما لاحظته في المجتمع الميزابي من تضامن ، وأصالة ، وغيره على لغة القرآن الكريم . ونظراً لعلاقة ملاحظات الدكتور وانطباعاته بالإباضية في ميزاب ، رأينا نشره هنا ، خصوصا وأنه يعالج فيه قضية من أهم قضايا الساعة وهي مكانة اللغة العربية في المجتمع الميزابي .. وتجدر الإشارة إلى أن المقال سبق أن نشر في جريدة الشعب (الجزائرية) .

4 — الشيخ أحمد توفيق المدني : (جزائري ت 1984) مدخل

لدراسة الدولة الرستمية دراسة قيمة شارك بها الشيخ المدني في ملتقى الفكر الاسلامي الحادي عشر المنعقد بمدينة وارجلان في سنة 1975 . وقد عالج الشيخ بقلمه التميز وأسلوبه الممتع الأخطاء التي وقع فيها المؤرخون القدامى في حق الدولة الرستمية منطلقين في ذلك من تعصب مذهبي ، وأوضح أنه ليس في المذهب الإباضي ما يدعوهم إلى ذلك لأنه مذهب سني لا يختلف في أصول العقيدة أو الفقهية عن غيره من المذاهب الاسلامية .

وشهادة الشيخ توفيق المدني شهادة مؤرخ عاشر الميزابيين الإباضيين عن قرب ، وخبرهم في الشدة والرخاء .

5 — الإمام الشهيد سيد قطب : (مصري ت 1966) «أدب

الحوارج وفلسفة الخروج» يستعرض الشهيد سيد قطب المعروف بإعجابه الشديد بآراء هذه الفرقة ومواقفها الايمانية الثابتة . ويدرس هذا الجانب عندها من خلال أدبها . ويوضح

وجهة نظر الإباضية الذين يعرف منهم الشيخ أطفيش إبراهيم ، حيث يعارضون من يصر على إلحاقهم بالخوارج دون تمييز ، ويوافقهم في وجهة نظرهم هذه . وقد نشر المقال سنة 1948 في جريدة الشهاب المصرية . ونظراً لطرافته وقيمة معلوماته ، أحببنا نشره في هذا الكتاب حتى يستفيد منه الباحثون عن الحق والحقيقة .

6 — الدكتور شكري فيصل (سوري ت 1987) «رسالة إلى

الشيخ بيوض عن هموم المسلمين» هذا عنوان وضعناه لرسالة قيمة ، تعد وثيقة تاريخية تنشر لأول مرة كنا نحتفظ بها بين أوراقنا منذ أن رافقنا الدكتور المحرم إلى (الفرارة) ووادي ميزاب في زيارة خاصة سنة (1969) ، والرسالة سجل فيها الدكتور شكري فيصل انطباعاته عما شاهده في هذا المجتمع الاسلامي المتضامن المتناسك . ويرغب في تعميم هذه القيم على البلاد الإسلامية ويعالج جانباً من هموم المسلمين في تلك المرحلة من أواخر الستينيات .

7 — الشيخ عز الدين التنوخي (سوري) «مسند الإمام الربيع بن

حبيب» دراسة علمية قيمة صُدِّرَ بها مسند الربيع بشرح الشيخ عبد الله بن حميد السالمي (العماني) وهي دراسة من متخصص في الحديث وعلومه وقد رغبتنا أن ننشرها هنا حتى يطلع القاريء الكريم على مكانة أحد كتب الحديث التي لا تقل أهمية عن الصحاح الست ، والشيخ التنوخي عضو المجلس العلمي بدمشق سبق له أن سجل ببراعه المنصف صفحات مشرقة في التنويه بفضائل مذهب الاستقامة وأهله

حتى قال في متهمهم بالزيغ : « كل من يتهم الإباضي بالزيغ والضلال فهو ممن فرقوا دينهم ، وكانوا شيعاً ، ومن الظالمين الجهال⁽³⁾ » .

8 - الشيخ عبد الحافظ عبد ربه (مصري ت 1990) :

«الإباضية مذهب وسلوك» وهي صفحات نقلناها عن مؤلفه القيم بهذا العنوان نفسه ، والشيخ عبد الحافظ من علماء الأزهر الأجلء المرموقين ، وقد قرأنا في كتابه ذاك انصافاً لم نقرأه لأحد من قبله ، وقد تميز بجرأة في الطرح والتحليل قلماً رأيناها لأحد غيره ، حتى إنه ليبدو في بعض أفكاره مبالغاً في المدح والتزكية . كأن يقول مثلاً «المذهب الإباضي ليس عجيباً في الدنيا ولا غريباً عن الحياة ، وإنما هو العملة الصحيحة التي يجب تداولها ، وتناولها ، والتعامل بها في شتى الانحاء ، وفي لاجميع المناخات والأجواء ، وهي بعون الله عملة لا ينالها التزييف أو التلبيس ، ولا يطولها الوضع أو التدليس ولا يجوز في منطقتها العمل بين بين ، ولا التنكر في وجهين ، ولا المشي على الحبلين ، فالحق عندها واحد لا يتجزأ ، وكل لا يتوزع⁽⁴⁾ » .

9 - الشيخ علي يحيى معمر (ليبي ت 1980) : «مكانة

الإباضية بين الفرق الاسلامية .»

وهو عبارة عن فصل أخذناه من الكتاب القيم الموسوم «الإباضية بين الفرق الاسلامية» وهو كتاب يعد اليوم مصدراً

(3) نقلا عن كتاب : الحق الدامغ ، للشيخ أحمد بن حمد الخليلي ، ص 230 .

(4) نقلا عن كتاب ، الإباضية مذهب وسلوك ، ص ، 22 .

هائماً لاغناء عنه للباحث المنصف . وقد رأينا نشره هنا لأنه يلخص فيه الشيخ — وهو المتخصص القدير في دراسة المذهب الإباضي — كثيراً من القضايا التي يعتبرها هو مفاهيم ينبغي أن تختفي .

10 — الأستاذ عبد العزيز المجذوب (تونسي) «الإباضية في الميدان» وهو عنوان فصل قيم اتسم بالموضوعية ، والانصاف ، والبحث المتعمق في النظر إلى الحوادث التاريخية . نشره صاحبه ضمن كتابه الموسوم «الصراع المذهبي بإفريقية» وقد طبع بتونس سنة 1975 وأصله أطروحة تقدم بها صاحبها لنيل درجة الكفاءة في البحث العلمي من كلية الشريعة وأصول الدين بتونس . وقد نشرناه هنا لأنه يغطي فترة من تاريخ الإباضية بالمغرب عرفت بالصراع الحاد بين الفرق والمذاهب ، أوضح الباحث فيها تسامحهم واعتدالهم ، ونزاهة حكمهم ، وسنة آرائهم .

11 — الدكتور عوض محمد خليفات (أردني) : «الأصول التاريخية للفرقة الإباضية» عنوان بحث قيم لاستاذ مبرز في التاريخ . وصاحب دراسات أكاديمية متعددة ، احببنا نشره لعلاقته الوطيدة بموضوع الكتاب . ولأن صاحبه ذو مكانة مرموقة في الدراسات التاريخية . سبق له أن نشر ابحاثاً تحليلية عن الإباضية في شتى الجوانب الحضارية . ثم لأن هذا البحث لا يعرفه القاريء في الجزائر وإن سبق نشره بعمان مرتين ونظراً لأهمية هذا البحث رأينا إخراجه في شكل كتيب مستقل ، أيضاً .

12 — الدكتور عمر بن الحاج صالح با (سنغالي) «هل الإباضية خوارج» وهذا الفصل نقلناه عن كتاب عنوانه «دراسة في الفكر الإباضي ، والكتاب في الأصل عبارة عن اطروحة جامعية تقدم بها صاحبها السنغالي إلى إحدى جامعات الهند . وقد صدر الكتاب بعمان في سنة 1986 ونظرا إلى أن الكتاب لم يصلنا إلى الجزائر . وقليل هم أولئك الذين أطلعوا عليه من الباحثين المتخصصين رأينا نقل هذا الفصل عنه تعميما للفائدة العلمية .

13 — الأستاذ مالك بن نبي (الجزائري ت 1973) : «في ضيافة ميزاب» عنوان مقال هام صدر بجريدة «الثورة الافريقية» الجزائرية في سنة 1968 سجل فيها هذا المفكر الاسلامي البارز انطباعاته عن ذلك المجتمع الميزابي الذي رآه عن كُتب فرآى فيه وجهًا لحضارة اسلامية صغرى والواقع أن المقال صدر أصلا باللغة الفرنسية وظل كذلك ، ورغبة منا في اطلاع القاريء الكريم الذي لا يمكنه فهم الفرنسية — عرّبناه راجين أن نكون موفقين في ذلكم .

14 — الأستاذ فهمي هويدي (مصري) «براءة الإباضية» و «خطوتان إلى الإمام» مقالان قيমান لهذا الباحث المعروف باهتماماته الاسلامية وباطلاعه على مسيرة الصحوة الاسلامية عبر العالم الاسلامي . وقد كانت له مشاركة فعالة في ندوة الفقه الاسلامي بعمان ، وهذان المقالان سجّل فيهما انطباعاته ، واقتراحاته ، حول ما جرى في تلك الندوة الهامة . مستشرفاً آفاق المستقبل الاسلامي بعد هذه التجربة الناجحة .

15 — الدكتور محمد ناصر (جزائري) : «رسالة مفتوحة إلى

السيد وزير الشؤون الدينية» رسالة مفتوحة وجهها صاحبها إلى السيد وزير الشؤون الدينية الجزائري السابق (بو علام باقي) إثر حديث متلفز تجاهل فيه المذهب الإباضي تجاهلاً تاماً ، وهو يتحدث عن المذاهب في الجزائر قديماً وحديثاً .

وفي الرسالة المفتوحة توضيح لمكانة الإباضية في الحضارة الإسلامية بعامه ، وفي تاريخ الجزائر بخاصة . وقد نشرت الرسالة عندئذ في الصحافة الجزائرية مثل النصر والشعب ، وأضواء . ونعيد نشرها هنا كوثيقة تاريخية ، وإلى هنا نرجو أن يكون هذا الكتاب مساعداً على تصحيح بعض المفاهيم الخاطئة التي سادت قروناً طويلة ، ويعمل على إزالة الأحكام المُسبقة والتعصب المذهبي ، إيماناً منا بأنه لا عزة للمسلمين ولا دافع لهم إلى التقدم والرقى ومواجهة تحديات الغرب الصليبي إلا في إطار الوحدة الإسلامية ، والتضامن الأخوة المتين ، فإن الوحدة والأخاء هما الدعامتان الأساسيتان اللتان ترفعان هذا البناء الإسلامي الشاخ وتزرعان في أفرادهِ وجماعاته القيم المحمدية الفاضلة ، فإن القيم السائدة في كل مجتمع هي جزء من مشروعه الحضاري ، وفي غيبة هذا المشروع (المتكامل) لا بد أن نتوقع خللاً دائماً في بناء القيم على المستوى العام والخاص .

نسأل الله سداداً في الرأي . وثباتاً في العقيدة .

محمد صالح ناصر

١٩٩٠/١٠/١٨

الحق الدامغ

لسماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي
المفتي العام لسلطنة عمان

..ولست أبالغ إن قلت إن الإباضية — أهل الحق
والاستقامة — تمتاز عقيدتهم ، وتنسم طريقتهم في فهم أصول
الدين بثلاثة أمور :

- ١ — سلامة المنزاع .
- ٢ — عدم التعصب .
- ٣ — المرونة والتسامح .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي اصطفى لعباده الدين فوحد به بين فئات المؤمنين ، وألف بنظامه بين قلوب المخلصين ، سبحانه هو الواحد في ذاته المتقدس في صفاته المتعالى في كبريائه ، الخالق لما في أرضه وسمائه ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾⁽¹⁾ ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾⁽²⁾ الصادق في الوعد والوعيد ، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، لا معقب لحكمه ولا تبديل لكلماته ، ولا إخلاف في ميعاده ، أحمد حمد من آمن بجلاله واعترف بكماله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ﴿له الحمد في الأولى والآخرة ، وله الحكم وإليه ترجعون﴾⁽³⁾ وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله وخبرته من خلقه وصفوته من رسله ، أرسله بأصدق البيّنات وأظهر الآيات وأبهر المعجزات فأكمل به الدين وأتم به النعمة على عباده المؤمنين ، صلى الله وسلّم تسليماً

(1) سورة الشورى (آية 11)

(2) سورة الأنعام (آية 301)

(3) سورة القصص (آية 88)

عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وعلى تابعيهم بإحسان إلى
يوم الدين ، أما بعد :

فإن التباين في أحوال الناس سمة من سمات البشر
المعهودة ، فلذلك تجدهم متفاوتين في المدارك ، مختلفين في
المشارب ، متعاكسين في الأحاسيس ، وإلى ذلك يرجع تعدد
مذاهبهم في الأمر الواحد ، وتباين تصوراتهم في القضية الواحدة
﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم﴾⁽⁴⁾
وكثيراً ما تتأصل الحمية في نفوسهم فلا تلبث مع استمرار الوقت
وعوامل الزمن أن تتحول إلى عقيدة راسخة متسحكمة ، في
العقل والوجدان ، مستعصبة على الحجة والبرهان ، لا تنزعزع
لمحرك ، ولا تنقاد لداع .

ولذلك كانت دعوات المرسلين عليهم السلام تستفرك منهم
الجهد الجخيد ، وتستغرق منهم الوقت الطويل ، وتظل مع ذلك
أفكار أكثر الناس سادرة في غيها ، غارقة في عماها ، لا تصفى
إلى الحجج الصادقة ، ولا تنفتح على المعجزات الساطعة ، بل
كلما ازدادت الحجة بياناً ، والمعجزة ظهوراً ، كانوا أشد تصامماً
وتعامياً ، وأوغل في العناد والشقاق .

وقد ابتليت كل أمة بالافتراق فيما بينها والانشقاق على
نفسها ، ولم تسلم من ذلك أمة حتى أمة محمد ﷺ التي
ختصت بمبعث أعظم رسول إليها ، وإنزال أجل كتاب عليها ،

(4)

وحذرت أيما تحذير من الافتراق ودواعيه ، وبينت لها عاقبة السيئة في محكم آيات الكتاب الذي اختصت به ، قال تعالى ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾⁽¹⁾ ، وقال سبحانه ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم﴾⁽²⁾ وقال ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾⁽³⁾ وقال لنبيه عليه أفضل الصلاة والسلام ﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء﴾⁽⁴⁾ فإنها مع ذلك كله لم تسلم من هذا الداء العضال الذي أصاب غيرها من الأمم ، غير أن الله سبحانه اختصها بأن حفظ لها كتابها المنزل من تحريف العابثين وتبديل المناوئين تحقيقاً لوعده الصادق ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾⁽⁵⁾ ، ومكن لها من معرفة الصحيح الثابت من سنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، وجعل لها مخلصاً من الشقاق والنزاع بالاحتكام إلى الله ورسوله حيث قال ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾⁽⁶⁾ .

ولا يكون الاحتكام إلى الله إلا بالرجوع إلى كتابه فتستلهم

(1) سورة آل عمران (آية 103) .

(2) سورة آل عمران (آية 105) .

(3) سورة الأنفال (آية 46) .

(4) سورة الأنعام (آية 159) .

(5) سورة الحجر (آية 9) .

(6) سورة النساء (آية 59) .

منه الحقيقة ويستبان به الحق ، وكذلك الاحتكام إلى رسوله ﷺ لا يعني إلا الرجوع إلى سنته الثابتة الصحيحة .

ومع وجود هذا المخلص الذي أمرنا بأن نفرغ إليه من كوارث الاختلاف فإن الخلاف لم يزل ، والشقاق لم يستأصل ، فقد تُؤوّل الكتاب تأولات شتى لم تستمد إلا من الوهم ، ولم تستلهم إلا من الهوى ، كما أن للناس مواقف متعددة في معرفة الصحيح من غيره من سنته عليه أفضل الصلاة والسلام ، وفي معرفة نفس مقاصد السنة الثابتة باتفاق الجميع ، ومن هنا نشأ ما نراه بين الأمة من خلاف ونزاع في أصول الدين وفروعه .

وإن أعظمه ضرراً ، وأفدحه خطراً ، وأعمقه أثراً ، وأسوأه عاقبة ما كان في أصول الدين ، فإنها قواعد الإسلام ، بها تقوم أركانه ، وعليها يشاد بنيانه ، وبقدر ما تكون قوتها تكون متانة الدين نفسه ، ولأجل ذلك فإن الأمة كثيراً ما تتسامح في الخلاف الذي يكون بين فئاتها في فروع الشريعة ، ولكن يستد شقاقها ، ويتعمق نزاعها عندما تختلف في الأصول ، وبقدر ما يكون من التقارب أو التباعد فيها بين طائفة وأخرى يقدر ما بينهما من التلاقي أو الافتراق ، وما مصدر ما حدث ويحدث بين طوائف الأمة من التراشق بالتهمة والتنايز بالألقاب ، والترامي بالأحكام القاسية إلا الاختلاف في أصول دينها ، والتباين في منازع استنادها في معتقداتها بين الإفراط والتفريط في التعويل على النقل أو العقل .

وليس هذا النزاع في أصول الدين مع وحدة المصدر الذي

تهل منه العقول المتنازعة إلا نتيجة لتباين المدارك واختلاف التصورات عند أئمة الفرق ، ثم يؤصله تعصب الجماهير لأقوال أئمتهم بحيث تجعل كل طائفة قول إمامها أصلاً تطوع له الأدلة المخالفة له بكل ما تخرعه من التأويلات المتكلفة ، فتوزعت الأمة شيعاً وأحزاباً ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾⁽¹⁾ .

ولست أبالغ إن قلت إن الإباضية - أهل الحق والاستقامة - ممتاز عقيدتهم وتتسم طريقتهم في فهم أصول الدين بثلاثة قامور :

1- سلامة المنزع ، فإنهم جمعوا في الاستدلال على صحة معتقداتهم بين صحيح النقل وصريح العقل ، فلم يضرّبوا بالنصوص الصحيحة عرض الحائط بمجرد تعارضها مع مقتضيات العقل بادی الرأي كما هو شأن أصحاب المدرسة العقلية الذين جعلوا العقل أسمى وأقدس ، وأصح وأثبت مما جاء به النبيون عن الله عز وجل ، فعولوا عليه في التحسين والتقيح ، والتعليل والحكم ، كما أنهم لم يطفشوا شعلة العقل متأسرين لظواهر الألفاظ غير مسترشدين به في استكشاف أبعاد معانيها ، والغوص على حقائق مراميها ، كما هو شأن عبدة الألفاظ الذين لا يأخذون من النص إلا قشوره ، لا يتجاوزون شكله إلى جوهره ، ولا يتعدون ظاره إلى مضمونه ، بل استمسكوا بالعري الوثقى من النصوص ، واتخذوا من العقل

(1) سورة المؤمنون (آية 53) .

السليم دليلاً على فهم مقاصدهم ، ومن الأساليب اللغوية شراكاً لاقتناص شواردها ، ولا غرو فهم منطلقون في ذلك من مرشد القرآن نفسه ، فكم تجد فيه ﴿لآيات لقوم يعلقون﴾ و ﴿لقوم يتفكرون﴾ و ﴿لقوم يعلمون﴾ و ﴿لأولى الألباب﴾ كما تجد فيه ﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾⁽¹⁾ ، فهو وإن سما فوق بلاغة بلغاء العرب والعجم لم يخرج عن كونه عربي اللسان والأسلوب ، وقد يسه الله للذكر بتفهم آياته واستجلاء مقاصده ، واستلهم مرأشده .

2- عدم التعصب لأئمتهم تعصباً يجعلهم يتصاممون عن النقول الصحيحة ، ويتعامون عن العقول الصريحة ، كما نجد ذلك عند كثير من المتفقهة والمتكلمين ، ومن أبشع ما وجدناه في ذلك قول العلّامة الصاوي في حاشيته على تفسير الجلالين «ولا يجوز تقليد ما عدا المذاهب الأربعة ولو وافق قول الصحابة والحديث الصحيح والآية ، فالخارج عن المذاهب الأربعة ضال مضل ، وربما أداه ذلك للكفر ، لأن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفرة»⁽¹⁾ .

فقد باين الاباضية هذا المسلك الضيق فقهاً وعقيدة إلى فسيح النظرة الشمولية للأمة ، ولم يسوغوا لأنفسهم أن يرفعوا

(1) سورة يوسف (آية 2) .

(1) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين ج 3 ص 10 ط دار إحياء التراث بيروت لبنان .

كلام أحد من أئمتهم إلى درجة كلام الله أو كلام رسوله عليه
أفضل الصلاة والسلام وإن بلغ في العلم والورع ما بلغ ، فهذا
الإمام نور الدين السالمين رحمه الله يقول في كتاب أصول الدين
من جوهر نظامه⁽²⁾ ؛

وهي أمور تبتنى عليها
صحة ديننا فمل إليها
لا دين للمرء إذا لم يعرف
ما كان منه لازماً فلتعرف
واعتمدن ذلك بالدليل
في حالة الاجمال والتفصيل
إلى أن قال :

ولا تناظر بكتاب الله
ولا كلام المصطفى الأواه
معناه لا تجعل له نظيراً
ولو يكون عالماً خبيراً
ويقول أيضاً⁽³⁾ ؛

نقدم الحديث مهما جاء
على قياسنا ولا وراء

(2) جوهر النظام ج 1 ص 6 ط 10 .

(3) المرجع السابق ص 22 .

ونرجعن في بيان الحكم
عنه إلى إجماع أهل العلم

وستجد أخي القارئ الكريم فيما أقدمه إليك ، وفيما دونه
غيري من الاباضية ، ما يدل ذلك دلالة قاطعة على صحة ما ذكرته
لك ، من أن أهل الاستقامة «والحمد لله» بريئون من هذا الأصل
الذي رضيه الصاوي بأن يكون القاعدة التي يقوم عليها صرح
الإسلام ، كما ستجد إن شاء الله أن الصاوي ليس وحيداً في
هذا الميدان ، فهناك من مشى على نفس هذا النهج كما يدل
على ذلك مسلكه في النقاش ، وستجد ذلك إن شاء الله أثناء
مطالعتك لهذه الدراسة التي أقدمها إليك ، ولا يعني ذلك أن
جميع أتباع المذاهب الأربعة منغمسون فيما انغمس فيه الصواي
وغيره من حمأة التقليد البغيض ، ورفع أقوال الأئمة إلى مستوى
أرفع من مسوى كلام الله ، وكلام رسول الله ﷺ ، وأقوال
الصحابة رضوان الله عليهم ، كلا فإن كثيراً منهم تحرروا من
ربقة هذا التقليد الأعمى وأنصفوا مخالفيهم في الحكم ، كما
ستجد ذلك أيضاً إن شاء الله في هذه الدراسة⁽¹⁾ .

3- المرونة والتسامح في معاملة سائر فرق الأمة وإن بلغ

(1) إن الانصاف يقتضي ذكرَ العلامة الفاضل الشيخ / أحمد بن
حجر آل بوطامي القاضي الأول بالمحكمة الشرعية بدولة قطر الشقيقة على
كلام الصاوي ، فقد أفرد هذا الرد في كتاب سماه (تنزيه السنة والقرآن
كونهما م صدر الضلال والكفران) وقد وضع في هذا الرد المقتصل على
تمنصل ..

الخلاف بينهم وبينهم ما بلغ ، إذ لم يتجروا قط على إخراج أحد من الملة وقطع صلته بهذه الأمة ما دام يدين بالشهادتين ولا ينكر شيئاً مما علم من الدين بالضرورة بغير تأويل ، أما من استند إلى التأويل - وإن كان أوهى من نسج العنكبوت - فحسبه تأويله وإقياً له من الحكم عليه عندهم بالخروج عن حظيرة الأمة ، وخلع ربة الملة عن عنقه ، ومن هذا المنطلق صدر ذلك الاعلان المنصف - الذي رسم مبدأ الاباضية في نظرتهم إلى الأمة - من أشهر قائد إباضي وهو/ أبو حمزة المختار بن عوف السليمي ، في خطبته التي ألقاها على منبر رسول الله ﷺ ، فأصاخ لها الدهر ، وسجلها الزمن ، وخلدها التاريخ ، إذا قال فيها رحمه الله : «الناس منا ونحن منهم إلا ثلاثة : مشركاً بالله عابد وثن ، أو كافراً من أهل كتاب ، أو إماماً جائراً»⁽²⁾ .

وقد مشى الإباضية في هذا النهج السليم ، والتزموا هذا المبدأ القويم في معاملتهم لسائر طوائف الأمة كما يشهد بذلك التاريخ ، ونجد هذه الثبرة المنصفة تتردد في أصوات قادة الفكر منهم في الخلف كما كانت من قبل عند السلف ، فهذا الإمام نور الدين السالمي رحمه الله تعالى يحدد لنا موقف الاباضية من سائر الأمة بقوله⁽¹⁾ .

(2) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ج 20 ص 104 ط . بولاق .

(1) كشف الحقيقة مع أنوار العقول ص 25 . المطابع العالمية . سنطنة

عمان .

ونحن لا نطالب العبادا
 فوق شهادتهم اعتقادا
 فمن أتى بالجميلين قلنا
 إخواننا وبالحقوق قمنا
 إلا إذا ما نقضوا المقالا
 واعتقدوا في دينهم ضلال
 قمنا نبين الصواب لهم
 ونحسب ذلك من حقهم
 فما رأيت من التحرير
 في كتب التوحيد والتقرير
 ردّ مسائل وحل شبه
 جاء بها من ضل للمنتبه
 قمنا نردها ونبدي الحقا
 بجهدنا كي لا يضل الخلقا
 لو سكتوا عنا سكتنا عنهم
 ونكتفي منهم أن يسلموا

وعلى هذه القاعدة بنى الاباضية حكمهم على طوائف
 الأمة التي زابت عن الحق وجانب الحقيقة في معتقداتها ،
 فكانوا أشد احتياطاً من إخراج أحد منهم من الملة بسبب معتقده
 ما دام مبنياً على تأويل نص شرعي ، وإن لم يكن لتأويله أساس
 من الصحة ولا حظ من الصواب ، ومن هنا اشتد إنكار الإمام
 الاباضي الكبير محبوب بن الرحيل - رحمه الله تعالى - على

هارون اليماني الذي حكم بشرى المشبهة وخروجهم من الملة ،
وأنشأ محبوب في ذلك رسالتين جامعتين ضمنهما حججه
الداخضة لرأي هارون ، وجه إحداهما إلى إباضية عُمان ،
وثانيتها إلى إباضية حضرموت⁽²⁾ ، وأطبق الرأي الإباضي على
تصويبه وتخطئة هارون .

وسئل المحقق الخليلي رضوان الله عليه عن حكم هؤلاء
المشبهة هل هم مشركون ؟ فكان من جوابه لسائله :

«إياك ثم إياك أن تعجل بالحكم على أهل القبله بالإشراك
من قبل معرفة بأصوله ، فإنه موضوع الهلاك والإهلاك»⁽¹⁾ .

هذا في حين تجد أتباع الأئمة الأربعة - الذين جعلهم
الصاوي مقياساً لمعرفة الحق من الباطل دون الكتاب والسنة -
يكفر بعضهم بعضاً في هذه المسألة ، وناهيك بما في «السيف
الصقيل في الرد على ابن زفيل» للعلامة السبكي الشافعي ،
و«تبديد الظلام المخيم في نونية ابن القيم» العلامة الكوثري
الحنفي ، و«البراهين الساطعة في رد بعض البدع الشائعة»

(2)الرسالتان في الجزء الثالث من كتاب سير المسلمين ، ونرجو أن
يظهر هذا الجزء قريباً إن شاء الله بعناية وزارة التراث القومي والثقافة التي
أصدرت الجزء الأول منه . ومحبوب هذا هو أحد كبار أئمة العلم في أواخر
القرن الثاني الهجري . إذ كان واصطة العقد عند الإباضية مشارفتهم
ومغاربتهم .

(1)كتاب تمهيد قواعد الإيمان ج 1 ص 224 ط وزارة التراث القومي
والثقافة ، سلطنة عمان .

للعلامة القضاعي الشافعي ، وأمثالها من الحكم بإخراج هؤلاء
المشبهة عن حضيرة الإسلام ، كما أن أحكام المشبهة أيضاً على
الآخرين لا تقل صرامة وشدة ، وناهيك بقول العلامة ابن القيم
في نونيته :

إن المعطل بالعداوة معلن
والمشركون أخف في الكفران

وما مراده بالتعطيل إلا رد متشابهه الآي والأحاديث إلى
محكمها ، حرصاً على التنزيه ، وحملأ لكلام الله وكلام رسوله
ﷺ على ما تقتضيه أساليب البلاغة في كلام العرب ، ودفعاً لما
عسى أن يتوهم منه من التناقض والاختلاف .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تجد المتفقهين على
مذهب إمام واحد من هؤلاء الأئمة الأربعة يشرك بعضهم بعضاً
في هذه المسألة أو في غيرها ، فهذا الفخر الرازي يسمي كتاب
محمد بن إسحاق بن خزيمة - الذي أسماه كتاب التوحيد - كتاب
الشرك⁽²⁾ وهما شافعيان فقهاً ، وسوف تقف إن شاء الله في
المبحث الثالث من هذا الكتاب على نقول حرفية من كلام ابن
تيمية في اختلاف الحنابلة في ألفاظ القرآن وحروفه وأصواته ،
وتكفير بعضهم بعضاً في ذلك ، ولا أريد أن أطيل في ضرب
الأمثلة وتعدد الشواهد في هذا ، فإنني لم أرد بما ذكرته التشهير
بأحد ، وإنما هو أمر اقتضته المقارنة بين احتياط الإباضية في

(2) مفاتيح الغيب . ج 27 ، 150 ط 2 - طهران .

الحكم وحذرهم من الاندفاع ، وبين تسرع بعض علماء الأمة الآخرين في إصدار مثل هذه الأحكام التي لا تؤول إلا إلى صدع جدار الأمة وتمزيق شملها ، وهو أمر يستدعي أسف اللبيب وحسرتة ، كيف تنزل هذه الأمة إلى ميدان الشقاق والنزاع بينها ، متجاهلة ما فرض الله عليها من الوحدة والوثام ، والألفة والانسجام ، ألم يأمرها الله بذلك في محكم كتابه بقوله : ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها﴾⁽¹⁾ ؟ ! ألم يحذرهما من عاقبة التفرق بقوله ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾⁽²⁾ ؟ ! ألم يبعث فيها نبياً كريماً ، ورسولاً أميناً يدعو إلى الوحدة دعوته إلى التوحيد فضرب فيها أروع الأمثال بصهر كل ما كان من قبل بين قومه من خلاف ونزاع في بوتقة الإيمان ، فأخى بالإيمان بين الفئات المتناحرة ، وألف بالإسلام بين القلوب المتنافرة ، وبين أن هذه الوحدة هي وحدة عقيدة وعمل ، ومبدأ وغاية ، وأمل وألم ، وصور ذلك أبدع تصوير عندما قال : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) وقال : (مثل المؤمنين في توادهم وتراحيمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر) .

(1) سورة آل عمران (آية 103) .

(2) سورة الأنفال (آية 46) .

أليست هذه الوحدة الإيمانية التي نادى بها رسول الله ﷺ ورفع لواءها بين أصحابه رضي الله عنهم وهي التي رفعت من شأن هذه الأمة فأبدلها الله بذلها عزاً ، وبضعفها قوة ، وبضعفها رفعة ، فتمكنت من فتح الدنيا مع قلة عددها وعدتها ، وكثرة خصومها ، ووفرة العُدَدِ عندهم ؟ .

أو ليس ما بليت به من الشقاق هو الذي عكس عليها ما نشهده من آثار سلبية في أوضاعها ، فتشتت بعد الوحدة ، وذلت بعد العزة ، وضعفت بعد القوة ، فازدرتها الأعين التي كانت تكبرها ، وطمعت فيها الأمم التي كانت لا تصطلي بنارها ؟ ليت شعري ! ألا صحوة بعد هذه السكر ، ويقظة بعد هذه النوم التي غرقت فيها عقول هذه الأمة وفي مقدمتها علماءها الذين ائتمنهم الله دينه وأخذ عليهم العهد أن يأخذوا بأيدي أمتهم إلى سبيل الرشد .

يا ساسة الدين علام ومنكم
وأنتم في عدة وعد ؟
تختلفون الرأي فيما بينكم
والحال إخفاق ونقض عهد
وخلفكم من يستغل خلفكم
في وثبة السمع وسمع الخلد
يخالكم كالشاء في مسرحها
فلإن دعاها رثمت لولد

هلم في صدق العزوم إنها
 سلاح كل أمة وفرد
 يا للضلال أن نضل قصدنا
 كسادة النادي وشيخ نجد
 نرتع في غيبوبة من أمل
 ونرتضي من العلى بالوهد
 نحس بالآلام في أنفسنا
 لكنها مني عليّ وحدي
 ونغمد السيف عن الخصم ولا
 نقره عن دمنا في غمد
 أهكذا قالت لنا عقولنا ؟
 أم أنها قد أخطأت عن قصد ؟
 أم أنها ليست لها بصيرة ؟
 أم أنها بصيرة لا تجدي ؟
 يا حالة قد أفقدتني عصبي
 رميت فيمن كنته بالفقد
 مولاي عبد تاه في مرامه ،
 عن نهجه وأنت مولى العبد
 فخذ بضبعه وأمة هوت
 تحت الخلافات وبشق السد
 مستفتحين بأياديك الغنى
 والعز والنصر وكل جَدُّ

فاجمع شتاتنا وأصلح شأننا
واقض لنا على ظلم نـد^(١)

ولعله مما يفاجيء كثيراً من القراء أن يطلعوا لأول مرة على عناية قادة الفكر من الإباضية بلم شعث هذه الأمة وجمع شتاتها بعدما أثختها الخلافات المذهبية ، ومزقتها النزعات العصبية ، وكم تمنوا أن يحس سائر أعلام الأمة بمثل أحاسيسهم ، ويشاركوهم في هذه الهموم التي تنوء بها صدورهم ، وتؤرق ليلهم ، وتقض مضجعهم ، وقد كانت منهم محاولات للخطو في هذا الطريق والاستعداد لهذه المهمة بنفقات مالية يرصدونها من جيوبهم وجيوب المخلصين من سائر أبناء الأمة ، وأصدق مثال على ذلك ما يجده القارئ في هذا السؤال الذي صدر من عالم مفكر وقائد محنك ، ذلكم هو الشيخ سليمان بن عبد الله بن يحيى الباروني ، عضو مجلس المبعوثان بالدولة العثمانية ، المشهور بسليمان باشا الباروني ، وهو من إباضية جبل نفوسة بالقطر الليبي ، وقد توجه بسؤاله هذا إلى عالم الإباضية بالمشرق ، ومرجعهم في أمور الدين ، الإمام عبد الله بن حميد السالمي ، ونص السؤال :

«هل توافقون على أن من أقوى أسباب اختلاف المسلمين تعدد المذاهب وتباينها ؟ على فرض عدم الموافقة على ذلك فما هو الأمر والآخر الموجب للتفرق ؟ على فرض الموافقة فهل

(١) من قصيدة لشاعر عمان الكبير الشيخ عبد الله بن علي الخليلي

يمكن توحيدها بالجمع بين أقوالها المتباينة وإلغاء التعدد في هذا الزمن الذي نحن فيه أحوج إلى الاتحاد من كل شيء ؟ وعلى فرض عدم إمكان التوحيد فما الأمر القوى المانع منه في نظركم ، وهل لإزالته من وجه ؟ على فرض إمكان التوحيد فأى طريق يسهل الحصول على النتيجة المطلوبة ؟ وأي بلد يليق فيه إبراز هذا الأمر ؟ وفي كم سنة ينتج ؟ وكم يلزم له من المال تقريباً ؟ وكيف يكون ترتيب العمل فلاء ؟ وعلى كل حال فما الحكم في الساعي في هذا الأمر شرعاً وسياسة ؟ مصلح أم مفسدة ؟ . . وكان هذا السؤال في عام ١٣٢٦ هـ .

فكان من جواب ذلك الإمام له : «نعم نوافق أن منشأ التشييت اختلاف المذاهب وتشعب الآراء ، وهو السبب الأعظم في افتراق الأمة على حسب ما اقتضاه نظركم الواسع .

وللتفرق أسباب أخرى منها ، التحاسد والتباغض ، والتكالب على الحظوظ العاجلة ، ومنها طلب الرئاسة .

وجمع الأمة على الفطرة الإسلامية بعد تشعب الخلاف ممكن عقلاً مستحيل عادة ، وإذا أراد الله أمراً كان ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١) .

والساعي في الجمع مصلح لا محالة ، وأقرب الطرق له أن

(١) سورة الأنفال (آية ٦٣) .

يدعو الناس إلى ترك الألقاب المذهبية ويحضهم على التسمي بالإسلام ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾⁽²⁾ ، فإذا أجاب الناس إلى هذه الخصلة العظيمة ذهبت عنهم العصبية المذهبية ولو بعد حين ، فبقى المرء يلتمس الحق لنفسه ويكون الحق أو لا عند آحاد من الرجال ثم يفشو شيئاً فشيئاً حتى يرجع إلى الفطرة .

وهي دعاية الإسلام التي بعث بها محمد عليه الصلاة والسلام ، وتضمحل البدع شيئاً فشيئاً ، فيصير الناس إخواناً ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾⁽³⁾ ، ولو أجاب الملوك والأمراء إلى ذلك لأسرع الناس في قبولهم ، وكفيتم مؤنة المغرم ، وإن تعذر هذا من الملوك فالأمر عسير والمغبرم كثير .

وأوفق البلاد لهذه الدعوة مهبط الوحي ومتردد الملائكة ، ومقصد الخاص والعام ، وحرّم الله الأمن ، لأنه مرجع الكل .

وليس لنا مذهب إلا الإسلام ، فمن ثم تجدنا نقبل الحق ممن جاء به وإن كان بغيضاً ، ونرد الباطل على من جاء به وإن كان حبيباً ، ونعرف الرجال بالحق ، فالكبير عندنا من وافقه والصغير من خالفه ، ولم يشرع لنا ابن إباض مذهباً ، وإنما نسبنا إليه لضرورة التمييز حين ذهب كل فريق إلى طريق⁽⁴⁾ .

(2) سورة آل عمران (آية 19) .

(3) سورة يونس (آية 108) ، سورة الإسراء (آية 15) ، سورة الزمر (آية 41) .

(4) العقد الثمين من أجوبة نور الدين ج 1 ص 126 ، 127 الطبعة الأولى .

وهذا كلام غني عن التعليق بشيء فإنه إن لم يكن شاهداً عادلاً ومُعَلِّماً واضحاً على نبل قصد السائل والمجيب وسمو فكرهما ، وحسن انشودتهما ، فليس يصح في الأذهان شيء .

وإذا كان الأدب مرآة تعكس ما في نفس الأديب من كوامن الأحاسيس فإن الأدب الإباضي قديمه وحديثه طافح بعصارات مشاعر الألم الذي يحسون به بسبب تشتت الأمة وانحلال عقد نظامها ، وإذا كنت أخي القارئ شاهدت صورة من ذلك فيما نقلته لك من قول أديب معاصر فأليك صورة أخرى تعكس مشاعر أديب بارع وعالم جامع من أدباء هذه الطائفة وعلمائها الغابرين ، وهو العلامة الكبير شاعر الإسلام والمسلمين أبو مسلم ناصر ابن سالم البهلائي الرواحي الذي طالما إنساب يراعه الموهوب ليصور لنا بعباراته الإيمانية همومه وأحاسيسه تجاه أمته ودينه ودونك هذا المقطع من قصيدة له بعنوان (أفيقوا بني القرآن) :

فيا لبني القرآن أين عقولكم
وقد عصفت هذي الرياح الزعازع ؟
أمسوبة هذي النهي من صدورنا ؟
وهل فقدت أبصارنا والمسامع ؟

* * *

فليت بني الإسلام قرت صفاتهم
فما زعزعتها للغرور الزعازع

وليتهمُ ساسنوا بنور محمد
 ممالكهم إذا باغتنها القواقع
 وليتهمُ لم ينحروا بسلاحهم
 نحورهم إذا جاش فيها التقاطع
 لقد مكن الأعداء منا انخداعنا
 وقد لاح آل في المهامة لامع
 وسورة بعض فوق بعض وحمل
 لزيد على عمرو وما ثم رادع
 وتمزيق هذا الدين كل لمذهب
 له شيع فيما ادعاه تشايح
 وما الدين ألاً واحد والذي نرى
 ضلالات أتباع الهوى تنقار
 وما ترك المختار ألف ديانة
 ولا جاء في القرآن هذا التنازع
 فيا ليت أهل الدين لم يتفرقوا
 وليت نظام الدين للكل جامع
 لو التزموا من عزة الدين شرطها
 لما اتضعت منها الرعان الفوارع
 وما ذبح الإسلام إلا سيوفنا
 وقد جعلت في نفسها تنقار
 ولو سلك السيفين يمنى أخوة
 لدكت جبال المعتدين المصارع

وما صدعة الإسلام من سيف خصمه
 بأعظم مما بين أهليه واقع
 فكم سيف باغ حز أوداج دينه
 بأفطع مما سيف ذي الشرك باخع
 هراشاً على الدنيا وطيشاً على الهوى
 وذلك سم في الحقيقة ناقع
 وما حرش الأظفان في قلب مسلم
 على مسلم إلا من النعمي وازع
 ولو نصع القلبان لم يتباغضا
 ولا ضام متبوع ولا ضيم تابع
 وما هذه الدنيا لها قدر قيمة
 يضاع له ذخـر من الله نافع
 وما نال منها طائلاً غير إثمها
 وأكدارها المستأثرون الأمانع
 ولو بعدت في النفس منزعة التقى
 لما نزعـت نحو الشقاق المنازع

* * *

فما بيعنا الحسنى ومرضاة ربنا
 بها بيعة يُمنى بها الربح بائع
 على أي شيء يقتل البعض بعضنا
 وتذكى فظاظات النفوس المطامع

* * *

ولو أشربت منا النفوس تبصراً
لما كان منها للشراة نافع
بلى أشربت داء دخیلاً أصارها
كما كمنت في جحر من الأقارع⁽¹⁾

وقد كان من بشائر الخير التي لاحت للأمة مع تبشير
إشراقه الصحة الإسلامية المعاصرة ما كان - بادئ ذي بدء - من
التعاطف والتواد والتراحم بين الشباب المسلم الذي أشرقت عليه
أنوار هذه الصحة ، فقد كانوا في بادئ أمرهم لا يلتفتون إلى
الخلافاة المذهبية ، ولا يشتغلون بالنعرات الطائفية إلا قليلاً
منهم ، وهم الذين لم تصقل آثار تلك الصحة ما تراكم على
قلوبهم من الصدأ ، وهؤلاء كانوا مغمورين بالكفرة الكاثرة التي
ينصب همها في محيط الإسلام الواسع الذي يجمع ولا يفرق ،
ويوحد ولا يشتت ، وكادت القضايا الخلافية تلقى في زوايا
الإهمال لتصبح في خبر كان ، حتى إذا نضرت هذه الألفة
وكادت تؤتي ثمارها الطيبة هاجت عليها أعاصير العصبية
العمياء - بعدما حركتها أحقاد غصت بها نفوس ساءتها وحدة
الأمة - فلفحتها بسمومها التي أذبلت نضارتها ، وقضت على
رونقها ، فإذا بالتواد تباغض ، وبالتعاطف تباعد ، وبالترباط
تقاطع ، والبرحمة عذاب .

وكان أول ضحية لهذا التآمر البغيض هو الإسلام الحنيف ثم

(1) ديوان أبي مسلم ص 262 ، 263 ، ط وزارة التراث القومي والثقافة
بسنطنة عُمان .

الشبية المسلمة التي كادت تقلب مجرى التاريخ ، وتعيد إلى حاضر الأمة المشرقة ماضيها العريق بضربها أروع الأمثال في الوحدة الإسلامية والترابط الديني ، فقد انتزعت انتزاعاً من حظيرة الوفاق الإسلامي ليدفع بها إلى مناهات من الخلاف والشقاق كان لها بد وأي بد من الدخول فيها والهيام في أرجائها .

وليت الأمر وقف عند حدود الجدل والمناظرات ، ولم يصل إلى التكفير وإصدار الأحكام التعسفية الجائرة على كثير من المسلمين ، بإخراجهم من الملة ، وتعريضهم من لباس الإسلام .

وقد لُزَّ الإباضية فيمن لُزَّ إلى مضائق هذه الفتنة على كره منهم ، فقد كانوا في مقدمة المستبشرين بطلائع الوحدة الإيمانية بين الأمة ، المرتاحين إلى روح الأخاء التي كانت تسود الشباب المسلم على اختلاف فئاته ، فما شعروا إلاَّ ويكفأ على رؤوسهم وفود هذه الفتنة وتضرم عليهم نيرانها بما صدر فيهم من أحكام التضليل والتبديع والتكفير ، واعتبارهم داء عضالاً في جسم الأمة يجب استئصاله ولو بئس الأعضاء التي أصيبت به ﴿وما نعموا منهم إلاَّ أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾^(١) ، إذ لم ينقموا منهم إلاَّ تنزيههم الخالق تبارك وتعالى ، وتصديقهم بما نزل في كتابه الكريم وما ثبت من سنة نبيه عليه أفضل الصلوة والتسليم .

(١) سورة البيروج (آية ٨) .

وكثيراً ما تعرّض طلبتهم في بلاد الإسلام وغيرها لأنواع المضايقات من قبل إخوانهم وزملائهم - مع ملاحظة ما يكونونه لهم من الود ويضمرونه لهم من الصفاء والخير - حتى بلغ الأمر ببعض سفهاء الأحلام أنهم كانوا يدعون الطلبة الإباضيين إلى إعلان الشهادتين ليكونوا في عداد المسلمين ، كأنهم - في نظر أولئك - من الملاحدة والمشركين .

وهو أمر يستدعي أسف كل ذي لب ، وحسرة كل من كان له قلب ، كيف ينزل الإباضية أهل الحق والاستقامة هذه المنزلة مع رسوخ قدمهم في التوحيد ، وصفاء مصدرهم في العقيدة ، وما عرفوا به بين الخاص والعام من الورع في الدين والخشية من بأس الله ، وما الذي ارتكبه الإباضية حتى ينزل بهم هذا الحكم ، ويعاملوا بهذه الطريقة ؟؟ .

إن أهم ما تذرّع به أولئك الذين أصدروا فيهم تلك الأحكام الرهيبة ، وعاملوهم بهاتيئ المعاملة النكراء ثلاث قضايا كان للإباضية فيها موقف لم يتفق مع رغبات أولئك الحاقدين ، فعدوا كل قضية منها مبررة للحكم عليهم بالكفر وقطع حبال الصلة بينهم وبين سائر الأمة مع أن الإباضية لم ينفردوا بموقفهم دون سائر طوائف الأمة ، فثم الكثير من الذين رأوا في هذه القضايا رأيهم وأيدوا موقفهم كما سيتضح ذلك من خلال هذه الدراسة إن شاء الله ، على أنهم في كل قضية منها أخذوا بحجز النصوص القرآنية والسنة الثابتة عن الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام . . . والقضايا الثلاث هي :

(أ) إنكار رؤية الله تعالى .

(ب) القول بخلق القرآن .

(ج) اعتقاد تخليد الفساق في النار .

وقد إنهالت عليّ أسئلة الطلبة من هنا وهناك عن موقف أصحابنا في هذه القضايا الثلاث ، وما يستندون إليه من دليل ، ونظرتهم إلى أدلة من يقولون بخلاف قولهم ، ولم يكن لطلبنا من قبل أي إهتمام بالقضايا الخلافية وبحثها ما عدا المتخصصين منهم في دراستها ، وإنما دعاهم إلى هذا الإلحاح في طلب كشف النقاب عن وجه الحقيقة فيها ما يلقونهم من عنت وواجهونه من إحراج من قوم لا يهمهم إلا إثارة شحنة كانت نائمة ض ، وتسمير فتنة كانت خادمة ، فدعاني ذلك إلى تحرير هذه العجالة التي سوف يجد فيها القارئ الكريم إن شاء الله دراسة وافية لكل قضية من هذه القضايا بتلخيص أدلة كل فريق وبحثها على ضوء قول الله عز وجلّ وقول رسوله عليه أفضل الصلاة والسلام ، مع استلهاهم فهم مقاصدهما بالرجوع إلى قواعد اللسان العربي المبين ، الذي شرفه الله بأن جعله وعاء للقرآن الكريم وطبع عليه لسان نبيه الخاتم عليه أفضل الصلاة والتسليم ، وستدرك أخي القارئ - إن شاء الله - من خلال دراستك لما أقدمه إليك ، أن الإباضية لم يستامدوا عقيدتهم من فلسفة اليونان وغيرها من أساطير الأولين كما يحلو زعم ذلك للذين يهرفون بما لا يعرفون ، وإنما استمدوها من أصفى ينابيع الحق ، وأنور أشعة الحقيقة ، فقد احتكموا إلى الكتاب العزيز

والسنة المطهرة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، عملاً
بقوله تعالى : ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ
كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾^(١) .

وإذا خفيت عن الغيبي فعاذر

أن لا تراني مقلّة عمياء

وقد كنت حريصاً من قبل على عدم الخوض في مثل هذه
القضايا الجانية وعدم اتخاذ موقف من هذه المهاترات إلاّ
الصمت ، فالحق أضفى وأبين من أن تكدر الشُّبُهَة صَفْوَه أو
تحجب نوره .

وفي تعب من يحسد الشمس ضوءها

ويجهد أن يأتي لها بضريب

ولن يضر هجر المقال إلاّ قائله دون من قيل فيه ، فما الذي
ضر المرسلين وأتباعهم مما قيل فيهم من الإفك ، ورموا به من
التهمة ، وهذه هي سنة الله في خلقه ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُجْرِمُوا كَانُوا مِنَ
الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ، وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ، وَإِذَا انْقَلَبُوا
إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ، وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ
وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾^(١) .

وإنّا وما تلقى لنا من هجائنا

لكالبحر مهما يلق في البحر يفرق

(١) سورة النساء (آية ٥٩) .

(١) سورة المطففين (آيات ٢٩/٣٣) .

ولكني رجحت جانب الرد على الصمت تبيناً للحق ودفاعاً
عن الحقيقة ، ووقوفاً في وجوه الذين يضرمون الفتن ويؤججون
الأحقاد بهذه المحاولات ، لتمزيق شمل الأمة وتفتيت وحدتها ،
إذ لا يعلم إلا الله عاقبة هذه الفتنة إذا اضطربت نارها ونجى
أوارها والعياذ بالله .

ولعمر الحق إن ما تعانيه اليوم أمة الإسلام من محن وفتن
وتشتت وضياع لجدير بأن يستدر لها عطف عدوها البلود ،
ويعتصر لها الرحمة من قلوب خصومها القاسية ، فكيف نسمح
بمضاعفة بلائها وإنكباء جروحها من جديد ، بأمثال هذه
المهاترات من غير أن نتصدى لها بالرد المقنع بالحجة
والبرهان ، لذلك قمت ، مع اشتغال البال وتراكم الأعمال -
بتحرير هذه العجالة تبيناً لحجة (الحق الدامغ) واستئصالاً لشبهة
الباطل الزاهق ، والله هو الذي يحق الحق ويبطل الباطل ﴿بَلْ

نَقَذَ الْحَقُّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾⁽²⁾ .

(2) سورة الأنبياء (آية طه) .

الفرق بين الاباضية والخوارج

... إن الاباضية لم يسلوا السيف على أحد من
أهل التوحيد قط ولم تقع منهم حرب ضد أحد من
المسلمين وحتى عند اشتداد الأزمة ...

الفرق بين الاباضية والخوارج (1)

بقلم : الشيخ أبو إسحاق

إبراهيم أطفيش⁽¹⁾

كتب أبو إسحاق هذا البحث بناء على طلب الشيخ إبراهيم محمد عبد الباقي من علماء الأزهر ، ونشره في كتابه « الدين والعلم والحديث » ص 252 - 264 في معرض حديثه عن الفرق الإسلامية ، تحت عنوان « نبذة عن الخوارج » .

وقال مؤلف كتاب الدين والعلم والحديث قبل سياقه للبحث « ولما كان الوقت شحيحا يضن لي بالبحث عنهم - أي الاباضية والخوارج - والتنقيب ، اتصلت بمن له خبرة بهم ، وهو زعيم طائفة منهم تسمى الاباضية ، هذا الزعيم يسمى أبو إسحاق إبراهيم أطفيش ، موظف بدار الكتب المصرية ، فكفاني مؤنة البحث » كما نشره الشيخ محمد السالمي وناجي عاف في كتابها « عمان تاريخ يتكلم » ص 103 - 114 ، ونشره أيضا الشيخ علي يحيى معمر رحمه الله في كتابه القيم « الاباضية بين الفرق

(1) الشيخ أبو إسحاق أطفيش (جزائري ت: 1965 م) من علماء الاباضية المرموقين والمحققين ، عاش بمصر وتوفي بها ، شغل منصب مصحح بدار الكتب المصرية .

الخوارج طوائف من الناس في زمن التابعين وتابع التابعين ، رؤوسهم نافع بن الازرق ، ونجدة بن عامر ، وعبد الله بن الصفار ومن شايعهم ، وسما خوارج لأنهم خرجوا عن الحق وعن الامة بالحكم على مرتكب الذنب بالشرك فاستحلوا ما حرم الله من الدماء والاموال بالمعصية متأولين قوله تعالى ﴿وان اطعموهم انكم لمشركون﴾ فزعموا أن معنى الآية وان اطعموهم في أكل الميتة ، فأخطأوا في تأويلهم ، والحق أن معنى الآية : وان اطعموهم في استحلال الميتة . والاستحلال لما حرم الله شرك ، وحين اخطأوا في التأويل لم يقتصروا على مجرد القول بل تجاوزوه الى الفعل فحكوا على مرتكب المعصية بالشرك فاستحلوا دماء المسلمين وأموالهم بالمعصية فاستعرضوا النساء والاطفال والشيخوخ .

وقد كان الامام الحافظ الحجة الربيع بن حبيب بن عمرو البصري الفراهيدي الاباضي صاحب السند الصحيح رحمه الله حين بلغ اليه أمرهم يقول : دعوهم حتى يتجاوزوا القول الى الفعل فان بقوا على قولهم فخطؤهم محمول عليهم وان تجاوزوه الى الفعل حكنا فيهم بحكم الله .

فلما ظهرت بدعتهم طردهم أصحابنا من مجالسهم وطاردوهم في كل صوب معلنين البراءة منهم ، فلما تجاوزوا القول الى الفعل اعلنوا الحكم بكفرهم - لان الكفر في استحلال ما حرم الله نص في كتاب الله قطعي ، وقد استشرى فعلهم يومئذ فاشتدوا على اهل التوحيد بفتنتهم فسلوا السيوف على الرقاب بغير ما أنزل الله فعظمت محنتهم ، فكانت بلاء عظيما .

وقد تولى قتالهم المهلب بن ابي صفرة الأزدي العماني القائد الأموي

المشهور وكان يضع الحديث في استنفار الناس الى قتالهم ف عظمت محنتهم
المزدوجة : عارية المسلمين وانتشار الاحاديث الموضوعة في قتالهم حتى بلغت
المدى من الشر فزادت الطامة ، ولما كان هؤلاء الخوارج من مكفرة التحكيم
فقد تولى كثير من ينتمون الى المذاهب العديدة ادماج الاباضية في هؤلاء
الخوارج ظلما وعدوانا والسبب في ذلك عديد المناهج :

أولا : أن اصحابنا الاباضية - يرون الملك العضوض لا تجب طاعته
بل الواجب أن يكون الحكم على منهاج الخلفاء الراشدين لما روى عن النبي
صلى الله عليه وسلم « اقتدوا باللذين من بعدي ابي بكر وعمر » حديث
صحيح متفق عليه ، ولما روى في عمار بن ياسر رحمه الله « ستقتلك الفئة
الباغية واستشهد بهذا الحديث منكروا التحكيم ولم ينكره الفريق الآخر
فثبت كنص قاطع ارتضاه الفريقان ولو اختلفا في تأويله اذ الفريق
الآخر حمل على معنى غير صحيح وانما دعاه الغرض الى حمله على ما
يقتضيه ذلك الهوى » .

ثانيا : ظهور أصحاب الأهواء في واقعة النهروان اذ زعموا أنها لأجل
الخروج على علي وهو امامهم والحقيقة التي لا مزية فيها ان أهل النهروان لم
يخرجوا عن علي قط ولكنهم حين أبوا التحكيم وأصروا عليه جنح أبو
الحسن الى فريق التحكيم فرأى منكروا التحكيم ان البيعة لم تكن في اعناقهم
بل هم في حل منها حيث ان التحكيم في شيء معناه غير ثابت الحكم والا
فلم التحكيم ؟ فاعتبروا التحكيم تنازلا من الامام أبي الحسن عن البيعة - اذا
منكروا التحكيم في حل من أمرهم فلمهم الحق ان يختاروا من يشاؤون اماما
لهم فاختاروا رجلا من أفضل الناس يومئذ ومن الصحابة الكرام وهو عبد
الله بن وهب الراسبي الأزدي ، فلما بايعوه بعثوا الى أصحابهم يومئذ ومنهم
الامام علي ان يدخلوا في البيعة لمن اختاروه اماما .

فرأى علي بن أبي طالب أن البيعة حصلت لأزدي لا لقريشي وحاربه
قبل أن يتقوى أمرهم فتخرج الامامة لغير قريش ، وهذا هو السبب
الوحيد لواقعة النهروان .

لهذا دعاهم حين ناظرهم الى ان يجاربوا عدوم معاوية ومن معه ولكن
الأمر قد فات فقد أخذ الأمر معاوية من الحكيم : عمرو بن العاص وأبي
موسى الاشعري في دومة الجندل فأصبح المسلمون في حل من أمرهم ، لأن
بيعة عبد الله بن وهب لم يقع الا بعد حصول النتيجة بوقوع ما حذر منه
أولو البصائر من منكري التحكيم - وهو أن التحكيم تلاعب بالأمر تولى
كبر الدعوة اليه الأشعث بن قيس الذي دس على أصحاب علي من قبل
معاوية .

وليس اذا ما يزعمه محرفو التاريخ ومتعنفه المذهبية ان واقعة النهروان
كانت بسبب الخروج على علي لأنهم لم يخرجوا والبيعة في أعناقهم فليتنبه
المبصر من الزلة في هذا المقام فان الأهواء متغلغلة في أصحابها بما لا خفاء
فيه .

الثالثة : ان تسمية الخوارج لم تكن معهودة في أول الأمر وانما هي
انتشرت بعد استثناء أمر الأزارقة كما قلنا ولم تعرف هذه التسمية في
أصحاب علي المنكرين للتحكيم والراضين به ولعل أول ما ظهر هذا اللفظ
بعد ثبوت الأمر لمعاوية والاستقرار فيه حين زاده الأخنف بن قيس التميمي
وهو من أهل النهروان فقال معاوية : لماذا أجبك الناس وأنت من الخوارج
فقال له الأخنف لو عاب الناس الماء ما شربته .

يعني الذين لم يرتضوا بيعته والدخول في أمره .. راجع الأمالي لأبي علي
القالبي .

أترى أن معاوية يصف الأخنف بن قيس بالخارجية لأنه كان مع من

حاربه علي يوم النهروان أو لأنه لم يكن في بيعة معاوية ، ولو كان وصف معاوية للأحنف بالخارجية لكونه من أهل النهروان لكان معاوية ومن معه أولى بهذا الوصف لأنه هو الذي سل السيف ضد علي ومن معه يوم صفين ولأنه هو الذي جنح عن بيعة الامام علي ، والحال قد بايعه أهل الحل والعقد فأصبحت بيعته حقا يجب اتباعه والدخول فيه على كل واحد من المسلمين .

الرابعة : ان الاباضية لم يسلوا السيف على أحد من أهل التوحيد قط ولم تقع منهم حرب ضد أحد من المسلمين وحتى عند اشتداد الأزمة من الحجاج بن يوسف الثقفي وزياد بن أبيه فقد اشتدوا في مطاردة المسلمين لمجرد الظنة حتى خرج عليهم التوابون وعلى رأسهم سعيد بن جبير وابراهيم النخعي وهما امامان وقد قتل الحجاج سعيد بن جبير أحد أئمة التفسير والعجب كل العجب ان هذه المجموعة الكبرى من العلماء الذين حلوا السيف أمام الجور الذي ظهر بفضاعة من الحجاج لم يطلق عليهم أحد اسم الخوارج بل اطلقوا عليهم اسم التوابين وهم كلهم من حملة لواء العلم وماتوا جميعا في القتال ما عدا ثلاثة فيما يبدو : سعيد بن جبير وابراهيم النخعي وعبد الله بن مطرف . فان العقل يقف مشدوها أمام هذه الفاجعة الكبرى ومع ذلك تمر على القراء بسلام .

ولكن الذي يحص التاريخ بأنصاف وعلم يرى في اطلاق لفظ الخوارج على الاباضية - وهم من الخوارج براء - مغزى وهو أنهم رأوا أن الامامة لا تختص بقريش بل هي تصح لكل من اختاره المسلمون لسياسة دولتهم ورياستها وهذا هو الحق الذي دل على كمال البصيرة اذ ليس من الحكمة ان يجعل الله أمر البشر على سائر أجناسه وأمه تابعا لقبيلة واحدة سواء أحسنت أم أساءت والوضع الطبيعي في البشر هو الذي أيد ما ذهب اليه

أصحابنا وحلوا عليه حديث « الأئمة من قريش » ومن المكابرة ومجانبة الحق أن يزعم الزاعون اختصاص سياسة الأمم بقريش ولم يرتضه الأنصار وهم أهل الفهم لما بعث به محمد صلوات الله وسلامه عليه حين قالوا لأبي بكر منا أمير ومنكم أمير ، ولا أبو بكر حين رد على الأنصار بقوله : منا الأمراء ومنكم الوزراء ان العرب تدين لهذا الحي . يعني قريش فعمل الحكم بانتقياد العرب لقريش لا لشيء آخر مما يزعم أهل الأهواء السياسية والمذهبية . أترى الأمم على سائر أجناسها تنقاد الى رجل من قريش لمجرد أنه قريشي ؟ كلا والله .

خامسا : ان الاباضية يبتغون العدل وينشرون العمل بالكتاب والسنة والسير على مناهج السياسة التي سار عليها الخلفاء الراشدون سواء قام بالأمر قرشي أم حبشي . عربي أم عجمي كما ورد في أحاديث صحاح لهذا ارتضوا سيرة عمر بن عبد العزيز حين أرسلوا اليه وفدا من البصرة يتألف من ستة علماء جهابذة : جعفر بن السائب وأبو الحر علي بن الحصين العنبري والختات بن كاتب والحباب بن كليب وأبو سفيان قنبر البصري وسالم بن ذكوان - وربما كانوا أكثر من هؤلاء الا أن الذين وقفت على اسمائهم هم هؤلاء رحمهم الله جميعا وحيث ذكر مؤرخو قومنا وفود هؤلاء على عمر بن عبد العزيز قالوا كعادتهم في الغمز : أرسل اليه الخوارج وفدا . ولم يذكر ما جرى بينهم وبين الخليفة عمر من الحديث وقبوله منهم كل ما أرادوه منه من نشر العدل وتطهير البلاد والمنابر من اللعن الذي اتخذه الأمويون سنة فان الوفد قال له ان المسلمين يلعنون عليا على المنابر فلا بد من الشروع في تغيير المنكر فابدل اللعن بقوله تعالى ﴿ ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ لم تسمح نفوس أولئك المؤرخين الذين أعمت

بصيرتهم الاهواء أن يذكروا تلك المناقب التي ظهرت من الاباضية من نشدان الحق والوقوف في وجه الظلمة بالمساجلة كما فعل الامام عبد الله بن أباض مع عبد الملك ابن مروان . وأبو بلال مرداس بن حدير مع زياد بن أبيه ولم يسلبوا السيف كما فعل الخوارج ، بل سلكوا سبيل البيان معرضين عن السنان لأنهم يرون عصمة الدم بالتوحيد لا اله الا الله وعصمة المال كذلك ولم يكن منهم ما كان من أعمال غيرهم في سبيل تأسيس السلطان أو حمل الناس على اعتناق مذهبهم بالسيف وقطع العذر بل تركوا الناس أحرارا في آرائهم وأعرضوا عن الدنيا ان كانت بغير حلها وتركوا لأرباب المذاهب مذاهبهم في حرية تامة لأنه لا اكراه في الدين فالحق مقبول من أي كان والباطل مردود على صاحبه محمول عليه فأهل القبلة عندهم كافة سواسية في الحق والحرية في الاعراب عن آرائهم الفرعية والحرية كفيلة لكل الناس بعد الاعتراف لله بالوحدانية والحرية هي الأصل في الانسان حتى ان المكاتب عندهم حر من أول يوم وما كاتب به فدين عليه يؤديه ولم يقل بهذا غير الأباضية لأنهم أدركوا من الشريعة ما فاقوا به سوام .

فبان عنهم الخوارج بما ذكرنا من شنائعهم وكبائرهم ، ولم تكن لهم صلة بالأباضية حتى يقال أنهم خوارج . ولقد كشفت للمنصفين من قومنا هذه الفروق فأدركوا الحق واعترفوا به . والرجوع للحق فريضة وفضيلة .

سادسا : الأباضية يميزون المناكحة بينهم وبين سائر الموحدين والخوارج لا يميزون التناكح مع غيرهم لأنهم يرون سوام مشركين كما بينا وأوضحنا وعلى هذا لا يجوز أيضا التوارث بينهم وبين من يخالفهم بطبيعة الحال لأن الشرك الذي منع المناكحة والمصاهرة يمنع الموارثة . فهل تعامى عند هذه الفروق الذين تعفنت نفوسهم وأصيبت أبصارهم بالعشي ذلك ما يشاهده الذي يقلب أطوار التاريخ في مدونات قومنا ولم يعتبروا قوله

سبحانه (ان الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً) وقوله تعالى (ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا . عدلوا هو أقرب للتقوى) .

ان السلم ليحار من أمر أولئك المتقولين على أهل الحق والاستقامة - الأباضية - كيف استاغوا ذلك لأنفسهم لا لشيء الا للهوى والشهوة الخفية نعوذ بالله من الهوى وانكار الحق .

أولا يتذكرون أنهم سيلاقون الله بذلك الافك . ام اعتقاد الخروج من النار هون كل شيء في سبيل الهوى .

سابعاً : الأباضية اتجهوا الى خدمة الاسلام علماً وعلاً منذ ابتدأت الفتنة فاشتغلوا بالتدوين فكانوا أول من دون الحديث فامامنا جابر بن زيد أول من دون الحديث وأقوال الصحابة في ديوانه الذي وصفوه بأنه وقر بعير ، ثم تلايذه من بعده وهم حملة العلم الى المشرق والمغرب ، والخوارج جنحوا الى اراقة الدماء واخافة السبل وتعطيل الاحكام ولم يذكر عن أحد من الخوارج ألف كتابا والذين يذكرون المؤلفات للخوارج انما يذكرون الأباضية وهم دون شك يريدون بهم التشنيع والتشغيب أما الصغرية والازارقة والنجدية فلم تذكر لهم رواية ولا تدوين ولو انفرد نجدة بن عامر برواية حديث ونافع بن الأزرق بأسئلة سألها ابن عباس ليس هذا محلها وأريد أنهم جنحوا الى الحروب لا الى التأليف ورواية العلم وكل من ذكره قومنا من رجال العلم ونسبوه للخوارج فليسوا الا من الاباضية ، ولقد أتى أصحابنا في تدوين العلوم بالعجب العجيب وعرفوا بالصدق والامانة والورع ما لم يبلغ شأوة غيرهم فلجأ بعض الكتّابين من قومنا الى تشويه الحقائق بالدعاية الفاجرة والبهتان حين بهرتهم تلك الانوار الساطعة وما خلطوا بين الاباضية والخوارج الا لطمس معالم الحق والصواب حسداً

من عند أنفسهم وأنى لمن اتخذ التشفيب مطية أن يعترف بالحق والصواب وقد عميت بصيرته . وإنك لترى لهؤلاء من العمل على إخفاء ما بيوتنه من أصحابنا من الكمال الديني والعظمة العلمية ما جعلهم يذكرّون له في موجب الذكر شيئا ، وأنى رأيت مؤلفات دونت في التاريخ والآب والفروع لبعض قومنا يستوجب المقام ذكر أصحابنا لما لهم فيما دون من الضلع فلا يتورع أن يتجاهل ذكرهم كأنهم لم يكونوا ، وذلك مبتغاة وامعانا في طمس الحق . ولا تجد من أصحابنا شيئا من هذا الأسلوب يشي والحمد لله العلي الكبير .

ثامنها : ان قومنا حين جمعوا الحوادث التاريخية واقتضت أخذ أن يذكروا أصحابها فشلوا في قيل الصواب فخلطوا بين الأباضية والخوارج فتارة ينسبون الأباضية للخوارج وتارة ينسبون الخوارج الى الأباضية كما يفعل الكثير من المدونين في الاصول والفروع في اضافة أقوال المعتزلة الى الأباضية والعكس مما أوجب التخليط والتشويش فيذهب المؤلفون الذين يعتمدون على النقل الى ما هو أشبه بالتهريج ولا عذر لهم عندي مطلقا لان الذي ينشر الحق يطلبه من ينبوعه لا أن ينتحله حسب هواه .

انا نجد من يزعم ان ابا بلال مرداس بن حدير من الخوارج وقطري بن الفجاءة من الأباضية والامر على عكس من ذلك وآخر يذكر أن الامام طالب الحق عبد الله ابن يحيى الكندي هو الامام عبد الله بن أباض والحق خلاف ذلك اذ الامام عبد الله بن أباض توفي آخر أيام عبد الملك بن مروان ، وعبد الله بن يحيى طالب الحق ظهر أيام مروان الحمار سنة 130 هـ وهكذا يخلط الكاتبون من قومنا هذه الحقائق الهامة تشويها وتشغيبا وانظر الى تاريخ الاندلس الذي يوجد بين أيدينا اليوم ولا تجد للأباضية ذكرا والحال أن الأباضية بلغوا في الأندلس مبلغا عظيما من العلم

ولمالم حتى أن جزيرة اليابسة التي هي من الأندلس كانت كلها أباضية الى القرن السادس بل الى نكبة الأندلس الكبرى .
وانك لتقرأ طبقات ابن سعد مثلاً فلا تجد ذكراً لرجال الأباضية عدا الامام جابر بن زيد فانه ذكره رغم أنه لشهرته التي اطبقت الآفاق وهكذا . والحق الذي لا ريب فيه ان رجال كل قوم قومهم أولى بهم والتاريخ أهله أولى وأعرف به من سوامم (والله يقول الحق وهو يهدي السبيل) .

ولقد استوجبت بدعة الخوارج أحكاماً شرعية ، قال المسلمون يجب الفرز بين الكبائر حتى لا يقع الانسان في جريمة الخوارج فالكبائر قسبان كبائر الشرك وهي كل كبيرة أخلت بالاعتقاد كاستحلال ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله أو انكار ما علم من الدين بالضرورة أو جحود حكم قطعي كالرجم الى أمثالها وكبائر النفاق ، وهي كبائر الكفر بنعمة الله . وهي ما يطلق عليه عند أهل الحديث كفر دون الكفر - وهي كبائر الفسق عند قومنا - وذلك كارتكاب فاحشة من الزنى واللاتيان في الاعجاز أو أكل الحرام أو شهادة الزور أو عقوق الوالدين وما أشبه ذلك من كبائر عملية . وكرت فريضة من فرائض الله غير مستحل كل ذلك يسمى عند أصحابنا بكبائر النفاق وكبائر الكفر بالنعمة واذا أطلق أصحابنا الكفر انصرف بالقرينة الى الحكم فيه هل هو مما يخل بالمعقيدة أو هو من الفعل أو الترك فيدرك نوع الكفر أهو كفر نفاق أو كفر شرك على أن أصحابنا لا يكفرون تشهياً ولا يكفرون أهل القبلة ما دانوا بكلمة الاخلاص والحق انهم انفردوا بذلك ولو ادعاه أرباب المذاهب واذا أدركت هذا علمت أن بين الأباضية والخوارج بونا بعيدا لا يجمع بينهما جامع الا انكار التحكيم وهو الحق الذي يؤيده كتاب الله وسنة رسول الله وسيرة العمرين واجماع

المسلمين . فشد يدك على الحق (ومن يعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم) .

وقد قال بعض أصحابنا وبه قال قومنا أن الخوارج ينكرون الرجم والذي عندي ان هذا القول غير صحيح الا اذا نظرنا الى حكمهم بأن مرتكب الكبيرة مشرك حلال الدم فان الزاني عندهم يقتل ردة لا حدا وهذا متفرع عن حكمهم قطعاً لا يحتاج الى دعوى نكران الرجم ولكن الأمر عندي ليس كما يتوهم وإنما زعم من يزعم من قومنا أن الخوارج ينكرون الرجم فيه مغمز ، لكنه يعود على الزاعمين بطامة . وذلك ان قومنا رويوا انه كان مما يتلى في كتاب الله في سورة الاحزاب الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم فأكلته العنزة . فيترتب على هذه القالة ان القرآن وقع فيه نقص والعياذ بالله وهذه الطامة تلازمهم وان فروا منها بزعم أنه مما نسخ لفظه وبقي حكمه ، ولكن أصحابنا يقولون الرجم فرض لا من القرآن ولكن من الحديث فقد روى الحافظ الحجة الامام الربيع في صحيحه عن الامام جابر بن زيد : « الاستنجاء والاختتان والوتر والرجم سنن واجبة » فسان الله الاصحاب من الخطل والحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه .

أبو اسحاق ابراهيم اطفيش

دور
المدرسة الاباضية
في الفقه الاسلامي

هذا المذهب ليس مستحدثاً وإنما نشأ متأصلاً على
القواعد الصحيحة مدعماً بالأصول الواضحة
الثابتة ، فبالنظر والتتبع لا يوجد في فقهه ما يخالف
الكتاب ولا السنة النبوية ولا عموم الأصول التي
اتفق عليها المسلمون جميعاً .

11

دور المدرسة الإباضية في الفقه الإسلامي (1)

بقلم : دكتور إبراهيم عبد العزيز بدوي

المدرسة الإباضية نشأت كما نشأ غيرها من المدارس الإسلامية بأئمتها وعلمائها ، طبقات يأخذ بعضها عن بعض إلى اليوم ، والطريقة التي قامت عليها لا تختلف كثيرا عن بقية الطرق التي قامت عليها المدارس الإسلامية الأخرى ، والمدرسة الإباضية من حيث نشأتها وتطورها وحزكتها يظهر أنها من أحرص الناس على التقليد بما أتت به الشريعة من أحكام المسلمين ، وهم يعتقدون أن كل من نطق بالشهادتين فهو مسلم ، له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، فلا يستحلون دماء أحد من أهل القبلة إلا بالحق الذي حددته الشريعة الإسلامية .

وللمذهب الإباضي أثر كبير في البحث والتدوين في شتى المجالات العلمية وما يصادف الحياة من مشكلات يومية ، فدونوا الأحاديث وشرحوها واستنبطوا الأحكام وطبقوها وتعرضوا للعقائد ونزهوها : ودونت لهم مؤلفات شتى في الحديث والفقه والعقائد والتاريخ وغيرها من صنوف العلم وآدابه ، حيث أصبح لهم مكان فسيح في الدراسة للمنهج الذي ساروا عليه .

(1) الدكتور إبراهيم عبد العزيز بدوي (مصري) مدرّس الفقه المقارن بكلية الدراسات الإسلامية بجامعة الأزهر . دور المدرسة الإباضية في الفقه الإسلامي .

فيقول : ان الفقهاء اختلفوا في تأويل أخبار النبي ﷺ التي تتعلق بأحكام الشريعة ، وتنازعوا صحة الحكم بها ، لأنها قواعد الفقه وأصول دين الشريعة ، ومن أراد الوقوف عند هذا والتفقه في الدين ، فالواجب عليه أن يتعرف على أصول الفقه وأمهاته ، ليكون بناءؤه على أصول صحيحة وليجعل كل حكم في موضعه ، ويجري به على سنته ، ويستدل على معرفة ذلك بالأدلة الصحيحة والاحتجاجات الواضحة والا يسمى العلة دليلا والدليل علة ، والحجة علة ، وليفرق بين معاني ذلك ليعلم افتراق حكم المتفرق ، واتفاق المتفق⁽³⁾ .

فهذا دليل على قدم البحث في هذا الفن ، كما أن هذا المرجع المشار إليه قد بسط البحث في علم الأصول حتى أنه استغرق الجزء الأول منه وهو يقع في مائة وستين صفحة وتطالعنا مراجع الاباضية بما يتفق واتجاه أهل السنة في الأصول الأساسية التي بنى عليها الفقه الاسلامي . فيقولون : أصول الدين هو ما جاء فيه حكم من كتاب الله تعالى ومن سنة نبيه محمد ﷺ ومن اجماع المهتدين من علماء الأمة .

فإذا أفنى الفقيه بقول يوافق هذه الأصول الثلاثة ، أو ما يسببها (القياس) وما هو مثلاً ، فلا يجوز لفقيه وصلته هذه الفتوى أن يقول بخلافها ، فما وجد في الأصول الثلاثة وهي : الكتاب والسنة والاجماع فهو

= واحد وأربعين مجلدا وما حصلت عليه من هذه المجلدات 22 مجلدا ينتهي آخرها بنهاية الكلام عن البيوع ، وهو لأبي بكر أحمد بن عبد الله بن موسى الكندي النزوي المعاني المتوفي سنة 557 هـ .

(3) المصنف ج 1 ص 38 .

أصل ، وما لم يوجد فهو فرع ، ويقاس عليها ما لم يذكر في أحدها فالأصل ما عرف به حكم غيره والفرع ما عرف حكمه بغيره⁽⁴⁾ .

ويقال لما جاء في كتاب الله فريضة ، ولما روى عن النبي ﷺ سنة ، ولما جاء عن الأئمة في العلم أثر ، وأحكام الشريعة كلها مؤخوذة من طريق واحد ، وأصل واحد هو كتاب الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ﴾⁽⁵⁾ . وقال : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾⁽⁶⁾ وقال : ﴿ فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول ﴾⁽⁷⁾ وقال : (من يطع الرسول فقد أطاع الله)⁽⁸⁾ فوجب اتباع السنة بكتاب الله تعالى ، والاجماع أيضا علم بكتاب الله تعالى لأن الاجماع توقيف ، والتوقيف لا يكون إلا عن رسول الله ﷺ⁽⁹⁾ .

وقالوا : ينقسم الشرع المسموع إلى ثلاثة أقسام : الأول : أصل ، والثاني : معقول أصل ، والثالث : استصحاب حال الأصل .

وينقسم الأصل إلى ثلاثة أقسام : الكتاب والسنة والاجماع وينقسم معقول الأصل إلى ثلاثة أقسام لحن الخطاب ، وفحوى الخطاب ، ومعنى الخطاب .

وينقسم استصحاب حال الأصل إلى ثلاثة أقسام : براءة

(4) منهج الطالبين ج 1 ص 82 .

(5) سورة الأعراف (آية 3) .

(6) سورة الحشر (آية 7) .

(7) سورة النساء (آية 59) .

(8) سورة النساء (آية 80) .

(9) منهج الطالبين ج 1 ص 84 .

الاتجاه العلمي للإباضية

وليبيان بعض الاتجاهات العلمية للمدرسة الإباضية أضع عدة نقاط تحدد مكانة الإباضية في الفقه الإسلامي منها :

(1) يرى الإباضية أن المصدر الأول للشريعة الإسلامية في عقائدها وعباداتها ومعاملاتها وأخلاقها وتنظيمها هو الكتاب الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأن من أنكر منهم حكما أو حرفا أو آية أو سورة فهو مشرك أو مرتد .

(2) ينص الإباضية على أن سنة رسول الله ﷺ هي المصدر الثاني ، وهي درجات ، المتواتر منها قطعي الدلالة يفيد العلم ويوجب العمل ، ومنكره كالنكر للقرآن ، والمشهور من السنة أقل درجة من المتواتر وأقوى من الآحاد ، وهو يوجب العمل به ولكنهم اختلفوا في حجية المشهور هل هي قطعية أو ظنية على قولين ، والآحادي من السنة ظني الدلالة والعمل به واجب ، والمرسل أضعف من الأحادي الا أنه يوجب العمل أيضا بشرط إذا كان لصحابي أو تابعي .

(3) يرى الإباضية أن الاجماع هو المصدر الثالث إذا استوفى الشروط التي ذكرها علماء الأصول وحجيته قطعية ، ومنكره فاسق ، ويأخذون الاجماع بقسميه القولي والسكوتي وأنه جائز الوقوع في كل عصر من العصور .

(4) ويرون أن المصدر الرابع القياس ، وهو القياس على الأسس المنصوص عليها في كتب الأصوليين .

(5) يرون أن المصدر الخامس هو الاستنباط بجميع طرقه ويهتمون بالمصالح اهتماما خاصا .

فالفقه عند الإباضية قائم على الكتاب والسنة والاجماع ، ثم القياس ،

والاستدلال والاستحسان ، والاستصحاب والالهام ، وللوقوف على مدى اعتماد الفقه الاباضي على هذه الأصول أشير إليها إشارة خفيفة من خلال مؤلفاتهم .

الأصول التي أعتمد عليها الفقه الإباضي

بالبحث في مراجع الاباضية وجدت وفرة عظيمة في الكلام في علم أصول الفقه معتمدة في مجملها على الشرح والتوضيح ، بل وجدت بعض علمائهم قد صاغ هذا الفن متنا بطريق القوائد الشعرية ، وينص على أن هذا العلم هو أساس الفقه ، وأنه أمر لازم لمن أراد أن يتقنه في الدين فيقول في مطلع قصيدته :

يا دائما للفقهاء من أنفاره	لازم فصول أصوله ومداره
لا يبد ركن فروعوه من لم يكن	مستجلبا للأصل من أخباره
حد أصول الفقه علم يقتدر	به على استنباط أحكام السور
وننة الرسول والاجماع	كذلك القياس مع نزاع
ومذهب الجمهور أهل العلم	ان القياس أساس مثبت للحكم
وهو الصحيح لورود النص	منبها عليه أو متقص ⁽¹⁾

كما يبدو لي أن الاباضية كان لهم باع طويل منذ زمن بعيد في تدوين هذا الفن والإشارة إليه ، ففي كتاب المصنف الذي تم تأليفه في القرن الخامس الهجري . يشير صاحبه إلى أهمية هذا الفن في استنباط الأحكام الشرعية⁽²⁾ .

(1) شرح طلعة الشمس ج 1 ص 18 .

(2) المصنف كتاب عام شامل يجمع بين شتى فنون العلوم الدينية بما فيها علم الكلام وعلم الأصول وعلم الفقه ولا أدري ربما يكون شاملا لأكثر من هذا أنه يقع في =

الذمة وشغل الذمة والاستحسان⁽¹⁰⁾ ومن هنا يظهر أن الإباضية كان لهم عظيم الأثر في تدوين منهجهم ، وكيفية استنباط الأحكام الفقهية كما تشير إلى ذلك معظم مراجعهم القديمة والحديثة ، كالعدل والانصاف ، وقاموس الشريعة ، ومنهج الطالبين ، حيث بوب أصحاب هذه المراجع لعلم أصول الفقه ، وكثيرا ما يرجعون بمسائل هذا العلم إلى أئمتهم مؤسسي المذهب كأبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة ، والربيع بن حبيب ، ومحمد بن محبوب بن الرحيل ، وغيرهم كثير . الا أنهم في اعتمادهم على سنة رسول الله ﷺ في أقوالهم أجد القدامى منهم يعتمدون اعتادا كلياً على مسند الربيع بن حبيب دون ما سواه من المسانيد الصحيحة ، أما المحدثون منهم وخاصة في القرن العاشر الهجري فوجدتهم يتعرضون لجميع المسانيد . فالسنة في منهجهم على ضربين : أحدهما : مجمع عليه وهو الذي لا يحتاج إلى البحث عن طلب صحته لشهرته عند الرواة ، وأهل التأويل وموافقته لحكم التنزيل .

ثانيهما : سنة مختلف فيها وهي التي لم تبلغ علم الكل وكثيرا ما يقع التنازع بين الأئمة فيها ، فلذلك يبحثون عن الأسانيد ، والمتون وصحتها ، والتنازع في تأويلها إذا صح نقلها ، فإذا اختلفوا في حكمها كان رجوعهم فيها إلى كتاب الله تعالى .

والمأمل في منهج الإباضية الفقهي يجد أنهم يجمعون في فقههم

(10) العدل والانصاف ج 1 ص 14 .

بين أهل الحديث والرأي⁽¹¹⁾ . بل هم إلى أهل الرأي أقرب ،
فالاستنباط عندهم يؤخذ من الكتاب والسنة والاجماع ، فإذا
عرضت حادثة لم يرد في شأنها نص في هذه الأدلة الثلاثة أجروها
على القياس ، فإن لم تتوفر العلة أجروها على الاستدلال : وهو
الاستحسان والاستصحاب والالهام .

وفي هذا قيل « من علم في شيء من الأمور بعينه حكم ما جاء فيه من
كتاب الله والسنة واجماع المهتدين من الأمة فهو عالم في ذلك الشيء » ، فإذا
أبصر وجه الرأي والقول بالرأي فيه واهتدى له ، كان فقيها فيه وعالما له ،
وكان من أهل الرأي فيه كما كان غيره من العلماء ، فأني حادثة لها أصل
تنبني عليه وتنتهي إليه ، فمن عرف تأويلها وأحسنها وأعد لها كان عليه
التحري لذلك وتعلم ، ومن قال بالرأي في موقع الرأي ، وهو من يجوز له
القول بالرأي باجتهاده فوافق الصواب كان مأجورا مصيبا .

وان خالف الصواب بالاجتهاد برأيه وهو من أهل ذلك كان معذورا
بذلك ، وكان من الحق قريبا ، لا فرق بينه معنا وبين أصحاب الحق على
الحقيقة⁽¹²⁾ .

ومع أن الإباضية يقرون القول بالرأي إلا أنهم يقسمون موضع البحث
والاستنباط إلى قسمين :

(11) أصحاب الحديث : هم أهل الحجاز ، أصحاب الأئمة مالك والشافعي
والثوري وأحمد ودาวود ، وسموا بذلك لبنائهم الأحكام على النصوص ، ولا يرجعون إلى
القياس إلا إذا لم يجدوا أثرا أو خيرا ، وأصحاب الرأي هم أهل العراق : أصحاب أبي
حنيفة سوا ذلك لعنايتهم بتحصيل وجه القياس والمعنى والمتنبط من الأحكام وبناء
الحوادث عليه : الملل والنحل للشهرستاني ج 2 ص 11 - 12 .
(12) المصنف ج 1 ص 88 .

- قسم لا يدخل البحث بالرأي فيه وهو الدين .

- وقسم يدخله الرأي وهو غير الدين .

(وفي هذا يقولون : من قال بالرأي في الدين فقد خالف معنى الرأي يسمى مخالفا في الدين ، لأن الدين لا يجوز اجراء الرأي فيه ، ولا يجوز الدين في الرأي ، ولأن الرأي حكمه ما عدا الدين ، والدين حكمه ما عدا الرأي)⁽¹³⁾ .

ولعل ما فهمته هنا يكون هو المقصد : حيث أرى أنهم يقولون أن الأمور الثابتة بالكتاب والسنة والاجماع قد ثبتت ورسخت فلا حاجة للزعم بالفتوى بغير ما ثبت فيها ، ويقال : انه رأي ، أما الأمور التي تجدد في عصر من العصور ولم يرد فيها نص ، فهي التي جعلت لمن كان عالما بالكتاب والسنة وآثار الأئمة السابقين بابا للدخول في بحثها واخراج حكمها . وقالوا : سئل (أبو الربيع سليمان بن يخلف)⁽¹⁴⁾ عن الذي يجوز فيه الرأي للعلماء ، قال ما لم يجدوه في الكتاب ولا في السنة ولا في الاجماع ، فإذا نزلت نازلة مما لم تكن في الكتاب ولا في السنة ولا في الاجماع ، ولا في آثار المسلمين الذين كانوا قبل النوازل فعليهم أن يجتهدوا فيها ، لأن الاجتهاد والرأي مقصوران على الحوادث والنوازل لا غير⁽¹⁵⁾ .

ومع أنهم يقصرون الرأي على النوازل إلا أنهم يقولون الاجتهاد في فروع الشريعة ، بل يدخلونه تحت المأمورات ، فيقولون الاجتهاد مأمور به ،

(13) المصنف ج 1 ص 89 .

(14) هو سليمان بن يخلف المزائي من تلمذة بليبييا ، من علماء القرن الخامس الهجري توفي عام 471 : الطبقات للدرجيني ج 2 ص 425 .

(15) العدل والانصاف ج 2 ص 20 .

وماجور عليه ، وكذلك يعتمدون في تفسير القرآن الكريم على التأويل ويقولون أن التفسير والتأويل بمعنى واحد ، وعليه أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة⁽¹⁶⁾ .

لهذا أجدهم في مسائل الفروع أحيانا يتفقون مع أهل الحديث وفي الكثير يقتربون من أهل الرأي . كذلك يقرون بأن أصول الدين ثلاثة : الكتاب والسنة والاجماع وهم في هذا كأهل السنة . أما أهل الرأي فيزيدون القياس على أنه من الأصول ، أما الحكم على الاباضية بأنهم يجمعون في منهجهم بين أهل الحديث وأهل الرأي فيظهر من خلال موقفهم من خبر الآحاد فإذا ورد خبر أحادي صحيح في غير مسند الربيع قدموا عليه ، وقالوا فيه : لا يقع العلم لنا به .

ومن جملة هذا القول : ان منهجهم الفقهي يعتمد على العمل بالحديث فيما ثبت لديهم ، سواء أكان الحديث متواترا أم أحاديا . ومن منهجهم أن الاجماع واجب العمل به لأنه توقيف ، فالقول بالاجماع واجب وهو أحد وجوه الحق لقول النبي ﷺ « لا تجتمع أمتي على ضلال » إذا فهو حجة لا تجوز مخالفتها ، وكل ما خالف الحجة فهو عجوج ، وإلى هذا يوافقنا بعض أهل الرأي .

وإذا كان الاباضية في منهجهم يعتمدون على الأصول الثلاثة : الكتاب والسنة والاجماع فهم أيضا يقرون العمل بجميع الأدلة كالقياس والاستصحاب والمصالح المرسلة والاهام ، إلا أنهم يقولون أن كل ما شابه الأصل فهو أصل وما لم يكن أصلا قيس

(16) جواهر التفسير ج 1 ص 16 .

على الأصل .

وكل هذا يؤكد أن الإباضية كان لهم منهجهم في الفروع والنوازل إلا أنهم كانوا يتقيدون بالأصول الثلاثة وهي الواجبة في البحث والفتوى ولا يخرجون من هذا التقيد إلا إذا كانت المسألة لا شبيهة لها في الأصول الثلاثة ، وفي هذه الحالة يستخدمون القياس وغيره من الأدلة وفي هذا المقام أذكر كلمة موجزة عن الالهام .

الالهام

الالهام عند الإباضية من أنواع الاستدلال .

وعرفه الإباضية بأنه إيقاع شيء في قلب الولي ينتلج له الصدر⁽¹⁷⁾ . وعرفه (السمرقندي)⁽¹⁸⁾ : بأنه ما وقع في القلب من غير تفكير واستدلال⁽¹⁹⁾ .

وتعريف الإباضية أدق في قيوده حيث أنه زاد شرط الولي لأن الالهام خاص ببعض أولياء الله تعالى وأصفيائه .

وهذا الالهام قسمان : الهام النبي ﷺ ، والهام غيره من الناس .
القسم الأول : الهام النبي ﷺ . وهذا الالهام حجة اتفاقا لأنه نوع من الوحي فهو حجة في حقه وحق غيره من المكلفين .

(17) شرح طلعة الشمس ج 2 ص 188 وفصول الأصول ص 357 هـ .

(18) هو عبد الله بن محمد بن عبد العزيز السمرقندي الحنفي توفي سنة 701 هـ ، معجم المؤلفين ج 2 ص 121 .

(19) جامع الأصول في بيان القواعد الحنفية والشافعية للسمرقندي .

القسم الثاني : وهو الالهام من غير النبي ﷺ فانه ليس بوحى وفيه ثلاثة أقوال .

القول الأول : أنه ليس بحجة لعدم العصمة ، إذ لا يؤمن أن يكون ذلك وسوسة شيطان وخاصة أن غير النبي ﷺ ليس معصوما بمخاطره .

القول الثاني : وهو قول جماعة من الرافضة سمو بالجمعفرية ، وفيه أنه حجة في حق الأحكام بالنسبة للملهم وغيره ، بل ذهبوا إلى أنه لا حجة سواء (20) .

القول الثالث : وهو مذهب (الإمام الكدمي الأباضي) (21) وبعض الصوفية .

وفيه أنه يكون حجة في حق من ألهم دون غيره ، ويلزم الملهم العمل به (22) . وزاد السالمى في توضيح هذا الرأي فقال : إن كان الملهم ضعيفا فلا يكون ذلك الالهام بنفسه حجة يطابق القوانين الشرعية والقواعد الدينية ، فإذا طابقتها كان حجة عليه ولزمه العمل به سواء أعلم أنه حجة أم لم يعلم إن كان ذلك الحال مما لا يسع جهله . وإن كان الملهم عالما مجتهدا فغالب أحواله لا يكون الالهام في حقه إلا في قضية لا يوجد لحكمها دليل متفق عليه ، وعلى هذا فينبغي أن يكون الالهام في حقه هو الاستحسان على بعض ما قيل في تفسير الاستحسان ، وهو عندنا حجة عليه .
أما ما قيل من أنه لا يؤمن أن يكون وسوسة شيطان فمنوع بأنه إذا

(20) التلويح على التوضيح ج 2 ص 15 وجامع الأصول ص 340 .

(21) أبو سعيد بن محمد بن سعيد الكدمي رضوان الله عليه من علماء القرن الرابع الهجري - المقبود الفضية ص 277 .

(22) فصول الأصول ص 357 وشرح طلعة الشمس ج 2 ص 188 .

قامت الحجة على أحد وجب عليه الأخذ بمقتضاها علم أنه حجة أو جهل ،
أمن الوسوسة فيها أو لم يأمن ، وغاية الأمر أن قيام الحجة من أمور
القدرية فيجب الكف عن الخوض فيها⁽²³⁾ . والله أعلم .

وبعد ، فهذا ما يصره الله في الكتابة عن الأدلة الشرعية والتي
ثبت من خلالها أن الاباضية لهم باع طويل في تأصيل الأحكام
الشرعية .

كما أن الاباضية لا يختلفون مع أهل السنة في العمل بالأدلة
المتفق عليها ، أما الأدلة المختلف فيها بين أهل السنة فإنهم دائما
أبدا يوافقون بعض اتجاهات أهل السنة ولا ينفردون برأي يخالف
أي اتجاه لهم ، فكل الأدلة محمولة على النص أو مقتبسة منه بما
قرر من قواعد وكليات وهكذا أجد أن الاباضية كغيرهم من أهل
السنة يحتاطون لاقرار الحقائق الشرعية معتمدين في كل ما
استندوا إليه بالبناء على النصوص فإذا تعارضت مصلحة مع
النص فهي عندهم من قبيل الأهواء النفسية والانحرافات
الفكرية ، وكانوا على من ادعاها أشد نفورا وانكارا ، وأقوى
غلظة واحكاما ، لذا شددوا الأمر في بيان الاجتهاد والمجتهد
اطمئنانا على ثبات الأحكام الشرعية .

أثر مدرسة الاباضية في الفقه الإسلامي :
ومع بيان أثر الاباضية في الفقه الاسلامي أشير إلى أن الفقه الإباضي

(23) شرح طلمعة الشمس ج 2 ص 188 لأبي محمد عبد الله بن حيد السالمى المغانى
ولد سنة 1286 هـ وتوفي سنة 1322 هـ .

يعتمد من حيث الأدلة بعد القرآن الكريم في مجال السنة الشريفة على المتواتر منها والمشهور ، والمستفيض وعلى الأحادي والمرسل ، وإذا تعارض الحديث والقياس رجح جانب الحديث ولو كان أحاديا أو مرسلا ، ولا يرد الحديث الأحادي إلا إذا صادفه نص قطعي ، ويقولون بالقياس والاستصحاب ، والمصالح المرسلة على التفاصيل والمناقشات الطويلة المعروفة في كتب أصول الفقه .

يتبين مما سبق أن مدرسة الإباضية كان لها أثر عظيم في الفقه الاسلامي يتضح فيما يأتي :

(أ) قامت هذه المدرسة في زمن تنابعت فيه المدارس الفقهية والفرق الإسلامية ، ونتيجة لهذا ، فقد تدرجت مبادئ كل مدرسة على أيدي علمائها ، وتتابع روادها ، وكان أتباع كل مدرسة يحافظون على التمسك بها والعمل بخصوص المنهج الذي قامت عليه حتى تبلورت خصائص كل مدرسة في الامام الذي عاصر بدايتها حتى صار اسمه علما عليها ، وكذلك تدرجت مدرسة الإباضية على يد علمائها وكان علمها عبد الله بن إياض . فالطريقة التي قامت عليها المدرسة الإباضية لا تختلف عن غيرها من الطرق التي قامت عليها بقية المدارس ، والتي لا تختلف كثيرا عما تتبعه الآن في اتباع كل منا مذهبه في التحصيل والتدريس ، فإمام من أئمة المسلمين يجتمع عليه عدد من طلاب العلم يلتزمون مجلسه ويأخذون عنه ثم يتفرون بعد التحصيل في البلاد ، فيتولى المتفوقون منهم الرواية عن إمامه متخذين كل منهم نفس أسلوبه في السلوك والتدريس ناقلين روايته ورأيه ، ثم تنتقل الطريقة مع الأجيال وكل جيل ينقل عن الجيل السابق ما حفظ من آثار وأراء تكتسب مع مضي الزمن شيئا من الاحترام والتقدير ، وربما تبلغ أحيانا درجة التقديس .

هذه الطريقة هي الطريقة التقريبية التي نشأت عنها جميع المدارس
الفقهية وإن اختلفت أزمنة الأئمة ، وبالنسبة للإباضية فإنهم يقرون بأن
مدرستهم نشأت بحضور عدد من علمائها مجلس جابر بن زيد رضي الله عنه
متبعين منهجه ورأيه محافظين على الأخذ عنه أكثر من غيره . ومن هؤلاء
العلماء ، أبو عبيدة مسلم ، وضام ابن السائب ، وأبو نوح الدهان ، والربيع
بن حبيب ، وعبد الله بن إياض وهم من جملة العلماء الأوائل لهذا المذهب .
(ب) قام علماء هذه المدارس الفقهية بالإحاطة بجميع مسائل الفقه
الموجودة في زمنهم ووضعوا لها أصولا وقواعد واضحة ، كانت أساسا لرجوع
المسائل التي تجد في أي عصر من العصور عليها ، والوصول إلى ما يرجى
منها وبذلك حفظت الثروة الفقهية ، وغت بإضافة ما استنبطوه بمجهودهم ،
فما الفقه والتشريع ، واتسع الاستنباط وتعددت مجالاته .

(جـ) ان قياس هذه المدارس كان صلة بين عصرين متميزين في التشريع
الإسلامي . عصر النبي محمد ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم ، وعصر العلماء
التابعين المجتهدين في جميع البلدان الإسلامية ، فقام التشريع والفقه على
الأسس الأصلية من الكتاب والسنة النبوية ، فقد كان لقيام هذه المدارس
بالنسبة إلى من بعدها أثر عظيم في وضع الأسس والمبادئ التي اتبعت في
الاستنباط والتشريع ، وتأصيل القواعد القوية التي يمضي عليها المجتهدون
من بعدهم .

(د) هذا المذهب ليس مستحدثا وإنما نشأ متأصلا على القواعد الصحيحة
مدعما بالأصول الواضحة الثابتة ، فبالنظر والتتبع لا يوجد في فقهه ما
يخالف الكتاب ولا السنة النبوية ولا عموم الأصول التي اتفق عليها المسلمون
جميعا .

فالأصول ثابتة وراسخة لا خلاف فيها ، أما ما كان من خلاف في

بعض المسائل الفرعية فإنما يرجع إلى فهم النصوص من الكتاب والسنة واستخراج الأحكام الشرعية العملية منها ، وهذا لا يؤثر على نشأة الاجتهاد في شيء ولا على علم المجتهد ، لأن الخلاف في فرع من فروع مسألة ما من الزاوية التي تنظر منها إلى حكمة يعلمها الله وهي الرحمة بعباده ، لأنه سبحانه هو الذي أراد لدينه الخاتم التوسعة والرحمة بعباده ، فلو كان غير ذلك لبين المجلد وفصل العام وحدد كل شيء في نصوص لا تحتل التأويل أو الخلاف .

وعلى هذا فالاختلاف بين المدارس الإسلامية المعتدلة في الفقه الإسلامي خلاف فرعي لا يؤدي إلى التزمّت والتعصب الذي تترعنه نسب ضئيلة غير متعمقة من اتباع هذه المدارس الفقهية .
والناظر في الفقه الإباضي يجد أنه قائم على قواعد خمس ، وهذه القواعد هي :

(1) قاعدة أن اليقين لا يتبدل إلا بيقين مثله ، وهو نوع من أنواع الاستصحاب لأن حكم اليقين مستمر وإن ورد عليه الشك حتى يتيقن انتفاء اليقين ومن أمثلة هذه القاعدة تيقن الطهارة مع الشك في الحدث فإن لصاحبه الأخذ باليقين وهو الطهارة .

(2) قاعدة أن الأمور بمقاصدها : فكل عمل لا يتحقق إلا إذا قصده صاحبه ومن أمثلة هذه القاعدة وجوب النية في الأعمال : لقوله ﷺ « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » .
(3) قاعدة المشقة تجلب التيسير : ومن أمثلتها : القصر والجمع والفطر في السفر .

(4) قاعدة العادة محكمة أي ضبطها الشرع وحكمها : ومن

أمثلتها بيان مدة الحيض والنفاس .

(5) قاعدة الضرر يزال ومن فروع هذه القاعدة وجوب رد

المقصوب ، وضمان المتلف . كما كان للإباضية كغيرهم من المذاهب الإسلامية أثر عظيم في شتى صنوف العلم وتدوينها ، فتكلموا في جميع المسائل الفقهية والاعتقادية والأخلاقية بالدراسة والتحليل والتصنيف .

تصنيف المسائل الفقهية :

ففي تصنيف المسائل بدأوا بالعبادات وانتهوا بالمعاملات ، وأضافوا البحث في الطهارة ووظائفها ، والصلاة بمحدودها وفرائضها ووقتها ، وبيان ما ينقصها ومعرفة أصولها ورخصها ، من صلاة وسفر ، وبيان فرضها وستنها وغير ذلك مما سنده رسول الله ﷺ ، وأفصحوا عن الزكاة وصفوفها وأهلها ، كما بينوا الخمس من الغنائم وأهله ، وزكاة الفطر وشروطها وعلى من تجب مع تحديد وقتها .

ويبينوا شهر الصيام وما يحمله من معان ، وأوجبوا فرضه مع الالتزام بكل ما شمله من خصائص المثقة بإمعان .

كما لم يتركوا منكاً من مناسك الحج إلا وبينوه للعامة والخاصة : فبينوا ما يجب من أعمال في حج بيت الله الحرام ومعرفة وجوب فرائضه وستنه . وتحريم الرفث والفسوق والجدال في الحج ونصوا على الاحرام من الميقات ، والوقوف بعرفة ، وزيارة البيت ، والطواف ، والسعي وما يلزم من الجزاء على من قتل الصيد وقطع شجر الحرم ، وبوبوا للمعاملات فحثوا على الاشهاد في البيوع ، وتحريم أكل أموال الناس بالباطل ، وتحريم مال اليتيم ورخصاً في السلم ، وفرقوا بين العقود الصحيحة والفسادة ، والعيوب الظاهرة وغير الظاهرة في عمل العقد ، والبيوع الجائزة والنهي عنها ،

ويبنوا الشركة ، والشفعة والاجارة وأحكامها ، وبينوا الرهن وشروطه وما يجوز للراهن والمرتهن ، والقراض ، والمساقاة ، والهبة وأقسامها ، والوصايا والمواريث وتكلموا في الصيد والذبائح ، وتحريم ما أهل لغير الله به ، وتحريم كل ما حرم من الميتة والدم ولحم الخنزير ، وتحريم كل ذي غلب من الطير وناب من السباع ، وتحريم ما ذبح على النصب معللين لما أحل وما حرم ، ورتبوا النكاح وشروطه الصحيح منها والفساد ، وحرّموا نكاح المتعة والمطلقة ثلاثا على زوجها حتى تنكح زوجا غيره ، وتحريم ما حرم الله من نكاح ذات النسب والصهر والرضاع . وكذلك بينوا العلاقة بين الأزواج وما يترتب عليها من عشرة ومعاشرة ، فيحرم وطء المرأة في الدبر ، وإظهار الزينة من المرأة لغير زوجها ، كما أفاضوا في لين الجانب وحسن المعاشرة وتحريم الوطء في الحيض والنفاس .

كما بينوا الأفضية والشهادات وما يتعلق بها من أحكام ، فحرموا الشهادة بغير علم وكتان الشهادة والإيمان الكاذبة وترك الارتياح والوقوف على الشبهات . وشرحوا حدود الله وصنفوها ، ونصوا على الجهاد في سبيل الله ومنزله وعلى هذا لم يتركوا مسألة من مسائل الفقه الإسلامي . إلا وأفوها حقها من الإيضاح والوقوف على مصدرها حتى لا أجد خلافا يذكر بين الإباضية وغيرهم من المذاهب الفقهية في التصنيف والتدوين .

أهم المسائل الفقهية التي خالف فيها الإباضية أهل السنة

تمهيد :

بعد بيان الأصول التي أعتمد عليها الإباضية في استخراج الأحكام الشرعية وتطبيقها ، أقرر أنهم في منهجهم كغيرهم من المذاهب الأخرى ، فقد جعلوا ينبوع الصافي لهذه الشريعة هو كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ ، كما قضوا بأن النصوص تتناهى ، ولكن الحوادث ، ولم يقف الإباضية عند جدم واجتهادهم حتى كانت له قواعد وأصول اعتمدوا عليها في استنباط الأحكام ومن هنا كان لهم أثر عظيم في الاجتهاد في الفروع الفقهية والتي هم فيها يتلاقون مع أهل السنة في أغلبها بل جميعا إلا القليل النادر ، والذي لا يصل حصره إلى أكثر من عشرة مواضع .

فبالرجوع إلى فقه الإباضية تجد أن المسائل التي خالفوا فيها الحنفية مثلا اتفقوا فيها مع الشافعية أو المالكية أو الظاهرية . وما خلفوا فيه مذهباً وافقوا فيه الآخر .

أما المسائل النادرة التي خالفوا فيها جملة أهل السنة تجد فيها أما رأياً واحداً عندهم ، أو رأيين أحدهما خاص بها والآخر يتفق مع مذهب من مذاهب أهل السنة .

وإذا كان الإباضية لهم رأيهم المنفرد في بعض الحوادث التي يمكن حصرها فإنك تجد الاختلاف بين مذاهب أهل السنة أنفسهم في كثير من الحوادث والفروع التي لا يمكن حصرها ، بل يتعسر الوصول إلى مسألة محل اتفاق بينهم ، فالاختلاف بين المذاهب أمر لا بد منه لاقامة الاجتهاد واستخدام العقول وتباين الأفهام ، وكثيرا ما يحدث الاختلاف في داخل المذهب الواحد حتى وصل عدد الآراء في بعض المذاهب إلى خمسة آراء .

وإذا كان هذا الاختلاف الفقهي فيما جد من حوادث ومائل في زمن المجتهد فإنما هو ناتج عن دراسة مستفيضة وعميقة لمعاني الكتاب والسنة ، وما ثبت من اجماع وما يستنبط منها من أقيسة ولم يكن افتراقا بل اختلافا في وجهة النظر ، وكان يستعين كل فقيه بأقوى ما توصل إليه من معان وأحكام .

وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يسره اختلاف الصحابة رضوان الله عليهم في الفروع ، ويقول : « ما أحب أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يختلفون ، لأنه لو كان قولا واحدا لكان الناس في ضيق ، وإنهم أئمة يقتدى بهم فلو أخذ رجل بقول أحدهم لكان سنة » (24) . ومع أن الاختلاف في الفروع الفقهية كانت له أسباب وعوامل أشار إليها الكثير ، فإني أوجزها فيما يلي :

أسباب اختلاف الفقهاء في الفروع الفقهية :
ترجع كثرة الفروع الفقهية فيها بين الفقهاء والتي أدت إلى تكوين

(24) الاعتماد للشاطبي ج 3 ص 16 .

المدارس الفقهية إلى عوامل كثيرة أجعلها فيما يلي :

(1) كان تفرق علماء الصحابة رضوان الله عليهم في الأمصار المختلفة مع تفاوتهم في العلم والرواية سببا في اختلاف الفتوى ، كما كان تباعد المسافات بين الأمصار عائقا للتقارب بين وجهات النظر ، فتكونت المدارس المختلفة من الفقهاء التابعين ، وكان على رأس كل بلد مدرسة لها فتاويها وآرائها الخاصة بها ، فوجدت بذلك مدارس في مكة والمدينة والكوفة والبصرة والشام ومصر والمغرب وصار لكل منها أتباع يحثدون .

(2) انقسام المجتهدين في الفقه الإسلامي إلى فريقين ، فريق اعتمد في منهجه على النصوص وغلبت عليه التسمية بأهل الحديث ، وفريق اعتمد على الرأي مستضيئا بالنصوص فغلبت عليه التسمية بأهل الرأي⁽²⁵⁾ .

(3) تنازع المسلمين حول الخلافة ومن الأحق بها ، وانقسامهم إلى خوارج وشيعة وجهود وهذا العامل قد ساعد على قيام المدارس الفقهية بطريق غير مباشر حيث انه ترتب عليه تصدع وحدة الأمة الإسلامية بعد الفتنة الكبرى ، فبعد أن كانت الأمة الإسلامية متحدة سياسيا وتشريعا ولها عاصمة واحدة وهي المدينة المنورة تصدر فيها جميع الأحكام السياسية والدينية ، مما جعلها المدرسة الوحيدة التي تزخر بالصحابة والحفاظ - أصبح العلماء بعد الفتنة متفرقين في الأمصار ، يتبادلون الخلاف والجدل ، مما أدى إلى تكوين هذه المدارس وكان من الطبيعي أن يكون لكل مدرسة موطن نشأت فيه وطوائف تتبعها وتعزز بمنهجها .

(4) شيوع رواية الحديث بعد أن كانوا يتخرجون منها مخافة الكذب على رسول الله ﷺ ، فظهر الافتراء في وضع أحاديث بسبب عدم تدوين

(25) الملل والنحل للشهرستاني ج 2 ص 11 .

السنة والاعتماد على الذاكرة ، وصعوبة حصر ما صدر من السنة في حياته ﷺ .

كل ذلك أعطى الفرصة لأعداء الله أن يلقوا بأقوال وينسبونها افتراء وكذبا إلى رسول الله ﷺ وشجع على ذلك الخلاف السياسي ، والتعصب المذهبي ، والتبعية للحكام والعداوة الدينية .

وكان نتيجة لذلك المجتهدين في التثبت مما يرد إليهم من الأحاديث ، فشرط بعضهم شروطا لقبول الحديث ، وتباينت وجهات النظر في ذلك رجاء الوصول إلى الصواب (26) .

(5) اختلاف أحوال الأمصار الاجتماعية والاقتصادية كان سببا في اختلاف المسائل المعروضة على المجتهدين ، فاختلقت الفتوى في المسائل والمباديء وتكونت المدارس الفقهية (27) .

(6) ورود المتشابه في القرآن الكريم ، وقد كان وروده سببا في اختلاف العلماء في مواضع التشابهات وحاول كثيرون من ذوي الأفهام تأويله والوصول إلى إدراك المراد منه فاختلّفوا في التأويل اختلافا مبينا ، ومن العلماء من توقف خشية الخطأ في الحكم ، قال تعالى ﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات ، هن أم الكتاب ، وآخر متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله . والراسخون في العلم ، يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولو الأبواب ﴾ (28) .

(26) المذاهب لأبي زهرة ص 26 .

(27) تاريخ الفقه الإسلامي للشيخ أنيس ج 2 ص 8 والمذاهب لأبي زهرة

ص 20 .

(28) سورة آل عمران (آية 7) .

ويقع تحت هذا الاختلاف العارض من وجهة اشتراك الألفاظ والتأويلات الكثيرة ، والخلاف العارض من جهة الحقيقة والحجاز ، والأفراد والتركيب ، والعموم والخصوص ، والناسخ والمنسوخ ، والإباحة والتوسع⁽²⁹⁾ .

فبهذا ثبت ورود التشابه في القرآن الكريم ليختبر الله سبحانه وتعالى قوة الايمان في المؤمنين وليدركوا أن خاتمة الشرائع صالحة لكل زمان ومكان ، ولكل ما يحدث ويحدث من فكر وأعمال تخطر ببال البشر وتدور بين الحظر والإباحة .

قال (ابن رجب الحنبلي)⁽³⁰⁾ : « اختلاف العلماء في المسائل التحليلية والتحريمية لأسباب : منها أنه قد يكون النص عليها خفياً لم ينقله إلا قليل من الناس ، فلم يبلغ جميع حملة العلم ، ومنها أنه قد ينقل فيها نصان ، أحدهما بالتحليل والآخر بالتحريم ، فيبلغ طائفة أحد النصين دون الآخر فيتسكون بما بلغهم ، أو يبلغ النصان معا من لا يبلغه التاريخ ، فيقف لعدم معرفته بالناسخ ، ومنها ما ليس فيه نص صريح كأن يؤخذ من أو مفهوم أو قياس ، فتختلف أفهام العلماء في حمل الأمر على الوجوب أو الندب وفي حل النهي على التحريم أو التنزيه وأسباب الاختلاف أكثر مما ذكرنا »⁽³¹⁾ .

وبعد فلماذا كان هناك خلاف ثابت في كثير من الفروع بين

(29) معارج الأمال ج 1 ص 14 - 21 .

(30) ابن رجب : هو أبو الفرج عبد الرحمن بن رجب الحنبلي المتوفى سنة

795 هـ . القواعد لابن رجب .

(31) القواعد لابن رجب ص 15 .

مذاهب أهل السنة فإنه يندر ويقل بين الإباضية وبينهم ، بل المسائل التي انفرد بها الإباضية وكانت لهم فيها حججهم المستقلة أحصرها فيما يأتي :

- أولا : مسألة المسح على الخفين .
 - ثانيا : مسألة رفع الأيدي في تكبيرة الاحرام .
 - ثالثا : حكم من أصبح جنبا في رمضان .
 - رابعا : طعام أهل الكتاب (الحريين) .
 - خامسا : تحريم نكاح الصبي والصبية .
 - سادسا : تحريم الجمع بين بنات العم خوف القطيعة ، وهو للشيخ أطفيش الإباضي خلافا للثابت عندهم .
 - سابعا : حق أولاد الإبن في الميراث مع الأولاد بالوصية الواجبة .
 - ثامنا : المدبر حر من تاريخ التدبير .
 - تاسعا : تحريم التبغ على أنه من الخبائث .
- وهذه المسائل لكل مذهب فيها آراء ومنها التحريم .
وتنبيا للفائدة في هذا المقام أذكر مسألة من المسائل المختلف فيها بين الإباضية وأهل السنة وهي مسألة الوصية للأقربين ، وذلك لما لها من أهمية خاصة في تقريرها .

الوصية للأقربين

تمهيد :

الوصية للأقربين :

من الثابت المنصوص عليه أن ابن الإبن مع الإبن لا نصيب له في تركة جده وجدته باجماع الفقهاء حيث لا فرض له مع وجود أعمامه ، وهذا كان له الأثر فيما يشهده المجتمع بين حين وآخر من وفاة شخص في حياة والديه وقد ترك ذرية ضاعفا لا عائل لهم ولا سائل خاصة وأن شرع الله سبحانه وتعالى بين الميراث بيانا شافيا ، فلم يجعل لذوى العقول التصرف فيه لما له من أهمية خاصة في العلاقات الانسانية والاجتماعية .

فبين الله سبحانه وتعالى لهم سهام مقدرة بالنص القرآني المفضل ، والكثير من النصوص النبوية المطهرة التي لا تجعل مجالا للشك أو الريبة .
فقدّر الفروض وحصرها في النصف ، والرابع والثلث ، والثلثين ، والثلث ، والدس ، كما نص على أصحاب الفروض الذين لهم الحق في تركة المتوفى من الذكور والاناث وعددهم اثنا عشرة .

فالذكر أربعة: (1) الأب . (2) الجد . (3) الأخ لأم . (4) الزوج .

والاناث ثمان: (1) الأم . (2) الجدة . (3) البنت .
(4) بنت الإبن . (5) الأخت الشقيقة . (6) الأخت لأب .
(7) الأخت لأم . (8) الزوجة .

وإذا تأمل القاريء آيات الكتاب أدرك أن الله سبحانه قدر علم الميراث وأوضحه ووضح النهار بشبهه ، فلم يترك تقديره إلى أحد . قال تعالى : ﴿ يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ، فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلهما النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث ، فإن كان له أخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصي بها أو دين آبائكم وأبنائكم لا تدرون أيها أقرب لكم نفعا فريضة من الله إن الله كان عليما حكيما ﴾ .

﴿ ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد فلكن الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ، ولن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد ، فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين ، وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث من بعد وصية يوصي بها أو دين غير مضار وصية من الله والله عليم حلیم ﴾ (32) .

ثم قال سبحانه ﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة (33) ان امروء هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو

(32) الآيتان 11 ، 12 من سورة النساء .

(33) الكلالة : مأخوذة من الاكليل الذي يحيط بالرأس من جوانبه ، وفرها العلماء بن يموت وليس له ولد ، ولا والد ، تفسير ابن كثير ج 1 ص 592 .

يرثها إن لم يكن لها ولد فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك وإن كانوا أخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم (34) .

ففي هذه الآيات الكريمة بيان سهام الفرائض ومستحقها ، وبينت السنة المطهرة حقيقتها وما بقي من أحكام تخصها ، وانعقد الإجماع على كل ما نص عليه ، وثبت باجتهاد الصحابة رضوان الله عليهم بيان الصورة المختلفة في اجتاع الورثة ، وكيفية التقسيم عليهم .

ومع ما ثبت من بيان لأصحاب الفروض فإن الشريعة الغراء تنص على أن الابن المنفرد يحوز جميع التركة ، وكذا الابن والبنون ، وأولاد الابن وإن نزل إن انفردوا ، كأولاد الصلب يستفرون جميع التركة ، فلو اجتمع أولاد الصلب وأولاد الإبن ، وكان من أولاد الصلب ذكر حجب أولاد الإبن بالاجماع ، وكذلك إذا أحاط أصحاب الفروض بجميع التركة حرم أبناء الإبن (35) .

فبمقتضى توزيع التركات يحرم أولاد الإبن من مال كانوا يستحقونه لو أراد أباهم إلى ما بعد وفاة والده ولكن قدرة الله التي اشتملت على المواعظ والعبر جعلت هؤلاء لا فرض لهم مع أعمامهم ، وبهذا التوزيع الذي عليه الكثير من أهل العلم حرم أبناء الإبن وجعلهم يعيشون في حياة بائسة لا

(34) الآية الأخيرة من سورة النساء .

(35) البوط ج 6 ص 156 ، وفتح القدير ج 3 ص 154 ، وبداية المجتهد ج 2 ص 405 ، والمهذب ج 3 ص 27 ، والمغنى لابن قدامة ج 5 ص 245 ، والبحر الزخار ج 6 ص 241 ، والمحلى لابن حزم ج 10 ص 345 ، ومختصر الخصال ص 209 ، واتباع الفاضل في أصول الفرائض ص 39 .

ذنب لهم فيها ، ولكن لحقتهم مصائب الدهر بسبب موت أبيهم الذي لو أبقتهم يد القدر إلى ما بعد وفاة جدهم لكانوا في سعة من العيش ورغد في الحياة .

ومع هذا الاتجاه إلى الحرمان من الكثير قيض الله سبحانه وتعالى من أهل العلم والبصيرة من يجد لهم مخرجا في كتابه العظيم الذي لم يفرط بحق في شيء ، وسنة سيد المرسلين وخاتم النبيين التي أكدت منعهم وعزتهم حتى نصوا على أنهم لا يقلون قدرا عن أعمامهم في ميراث جدهم ، فنادوا بالوصية لهم وأوجبوها على الوالدين لأولاد أبنائهم المتوفين في حياتها وجعلوا حرمة منعها كحرمة تضييع أصحاب الفروض .

ومن هذا الفهم العميق والاتجاه الجليل الذي أزال الكثير من الخلل في توزيع التركات كانت الوصية الواجبة التي أرى أنها مفخرة الفقه الإباضي ومرادراكه لمعنى الكتاب والسنة وقداصة هذا التشريع وما فيه من اللطف والرحمة بهؤلاء الأيتام وتدارك ما فاتهم بموت أبيهم .

أهم مؤلفات الإباضية

بعد عرض أهم الجوانب العلمية عند مدرسة الإباضية والإشارة إلى مصادرها يتحقق للقراء أن المذهب الإباضي غني بالمؤلفات الكثيرة ، والتي منها ما هو كبير الحجم والتي يصل بعضها أحيانا إلى ما يزيد عن السبعين جزءا ، ومنها ما هو صغير الحجم قليل الأجزاء ، وليس صغر الحجم دليلا على اختصار علومه ، وإنما لاقتصاره على بحث جزئية معينة في المذهب . ولا أستطيع في هذا المقام أن أشير إلى ما دون من هذه المؤلفات لدى

كتاب الإباضية ، بل لا أستطيع أن أشير إلى ما رأيته فقط من خزائن
ملوءة بمؤلفات العلماء من إباضية سلطنة عمان ، فإذا عن مؤلفات إباضية
المغرب العربي بليبيا والجزائر وتونس والتي عرفت مصر عن طريقهم
المذهب الإباضي .

فكل من أشار لهذا المذهب من علمائنا رجال الأزهر الشريف يذكر أن
مراجعهم كتاب شرح النيل وشفاء العليل ، وكتاب الإيضاح للشماخي ،
وهما لعالمين من علماء المغرب العربي ، بل لو سمع مني أي عالم من علمائنا
الأفاضل ذكر المذهب لقال إن مراجعه نادرة ، وربما لا يكون لهم مرجع
سوى شرح النيل ، ومع هذا فإن للجميع عذرهم وذلك من ناحيتين :

الناحية الأولى :

إن شرح النيل مؤلفه رحمه الله كان في أوائل هذا القرن الذي نعيشه ،
وقد حضر إلى مصر وأقام بها حتى وفاته ✽ ، وإلى الآن يعتبر أحفاده من
أبنائها ، فحافظوا على هذا الكتاب حتى طبع في مصر ، وأخذ للدراسة في
الأزهر للباحثين ، فلم يكن يوجد سواه ، بل أستطيع أن أقول أنه قبل
حضور الشيخ أطفيش إلى القاهرة كان لا يوجد لهم مرجع واحد ميسر
للاطلاع والدراسة .

الناحية الثانية :

إن أهل المذهب في العصور السابقة ربما كان لهم بعض التحفظ على ما
يؤلفونه فلا يطلع عليه سوى أهل المذهب ، ومعظم كتب التاريخ
الإباضي تشير إلى كثرة الفتن في الأقطار التي يعيشون فيها ، والتي كثيرا ما
كانت تؤدي إلى الحرص الشديد على اختفاء هذه المؤلفات ، وقد أدى هذا

الحرص إلى ضياع الكثير منها ، وربما كانوا يحفظونها في بطون الجبال والجحور فتأكل بعضها الأرضة ، لهذا نجد الكثير من المراجع ناقصا مجلدا أو أكثر من وسطه ، وربما لا يبقى من المراجع الضخمة سوى مجلد واحد أو ما يشير إليه ، وسواء أكان المعروف لدى علماء الأزهر مرجعا أم أكثر فإن المذهب الإباضي معلوم لدى كافة المسلمين منذ نشأته وهو مشار إليه لدى كتاب الفرق الإسلامية ، ولكن على دعاة أهل العلم الوقوف على منهج أي مدرسة من المدارس وذلك من مصادرها الأصلية .

وإذا كان لا نعلم في وقت سابق عن حجم الثروة الضخمة التي تركها علماء الإباضية فقد حان الوقت الذي تخرج فيه هذه المؤلفات من هذا الحصار لتطوف الدنيا من مشرقها إلى مغربها ، ويرجع الفضل في هذا الانتشار إلى العصر الذهبي الذي تعيشه الآن سلطنة عمان بقيادة زعيمها المفدى السلطان قابوس بن سعيد ، والذي له الفضل العظيم في النداء الدائم بجمع هذا التراث الضخم للقيام على حفظه وطبعه حتى تيسر له ما نادى به .

وقد وفي وأنشأ وزارة التراث القومي بقيادة صاحب السمو السيد فيصل بن علي وزير التراث القومي والثقافة ، الذي شمر عن ساعديه ، وتغمره السعادة كلما حصل على مؤلف ليقوم بطبعه ونشره في كافة بلدان المعمورة ، والذي يطوف بالوكالة يلمس هذا القدر العظيم لهذا الوزير والرجال الذين يعملون معه في احياء هذا التراث الضخم ، فكم تأخذك هالة الفخر بسهر هؤلاء الرجال على هذا الانجاز المعجز في هذه الفترة الوجيزة ، والتي تدل على معجزة حقيقية في قراءة هذه المخطوطات التي يتعثر النظر في قراءتها ثم طبعها بهذا الشكل الحسن فجزام الله خير الجزاء . وإن كنت في كلامي هذا أشيد بدور هؤلاء الذين تولوا حفظ

التراث ، فليس من فراغ ، ولكن كل هذا لمسته خلال زيارتي لسلطنة عمان في نهاية عام 1984 م من أجل الوقوف على مراجع المذهب بدعوة من ساحة مفتي عام سلطنة عمان « الشيخ أحمد بن حمد الخليلي » .

وقد اطلعت على مخطوطات متهاكة ذات رائحة شديدة من سوء التخزين ، وربما لا تستقر النفس بالاقتراب منها ، وأخرى بخط رموز يصعب على غير المتابع لها قراءتها وفكها⁽³⁶⁾ .

كما سمعت من العاملين فيها أن الحصول على المخطوط من حصنه صعب للغاية ، وكثيرا ما يحصلون على جزء من مخطوط في وقت ثم يحصلون على بعضه أو باقيه بعد عناء في فترة زمنية كبيرة ، وربما يحصلون عليه من مكتبات عالية في أوروبا وغيرها ، فثلا علمت أن هناك كتابا اسمه (كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة) ، ففرحت حيث أنه المصدر التاريخي الوحيد الذي يدلني على أثر هذه المدرسة ولكن سرعان ما تبدد هذا الفرح ، فالوكالة لم تحصل إلا على غلاف أحد المجلدات فقط ، وتشاء الظروف أثناء استغراقي في البحث أن أصل إلى أن هذا المخطوط توجد منه نسخة بمكتبة كلية الدراسات العليا بجامعة بغداد ، وهذا كله يدل على أن جمع مؤلفات المدرسة الإباضية ليس بالأمر الهين .

كما ذهلت لما رأيت الوكالة التي استقبلني روادها أعظم استقبال وأتاحوا لي أن أجول فيها وأحصل منها على ما شئت من مراجع منسقة جميلة

(36) يقول الشيخ سالم بن حود السيابي قاضي محكمة مسقط . أعلم أن أغلب علماء عمان أعظم علمهم الفقر وأكبر مؤخر لهم عن التأليف العمر ، ولم تكن لهم دولة غنية بمعنى الكلمة ، فلذلك ترى مؤلفاتهم في الزوايا تلعب بها حشرات الأرض . مقدمة فصول الأصول ص 7 .

حسنة الطبع مجلدة أفخم التجليد ، كثيرة العدد .

وبتصفح هذه المؤلفات الضخمة كثيرة المجلدات ، أرى أن علماء هذه المدرسة لا يعرفون التخصص في العلوم الإسلامية ، فلا يقتصرون في بحثهم على علم دون علم إلى يومنا هذا فنجد المرجع الواحد جامعا شاملا كل العلوم ، فلم يترك بابا أو مسألة إلا وطاف فيها وأعطاهما حقها من البحث والتحقيق .

فالغاية العظمى من هذه المراجع متقاربة في تنظيمها وتبويبها ، فنجد أنها تبدأ في أول أجزائها ببيان فضل العلم والحث عليه ، ثم السيرة العطرة لسيد الخلق سيدنا محمد ﷺ وصحابته ، ثم الجانب الأخلاقي ، ثم الجانب العقائدي ، ثم أصول الفقه ، ثم الفقه بجميع أبوابه وفروعه ، وأحيانا أجد بعض هذه المؤلفات مدونا فيها علم أصول الفقه قبل علم التوحيد .

كما أرى أن أصحاب هذه المؤلفات كانت لهم القدرة القائمة في استخراج الأحكام الدالة على جميع أصناف العلم ، فلم يتركوا مسألة واحدة إلا ووضحوها وأصلوها .

فالناظر في هذه المراجع يدهش حينما يرى هذا الجهد الذي بذلوه في تصنيف هذه المراجع وضخامتها ، فمثلا تجد المسألة الواحدة الفرعية في بحثها وكتابتها أحيانا تقع في مجلد ضخيم بل في بعض المراجع تشمل أكثر من مجلد ، فبالتجوال في بعض هذه المراجع أجد أنني وصلت في النظر إلى الجزء العشرين منه ولم ينته بعد من الطهارة أو الصلاة ، وذلك كقاموس الشريعة ومعارج الآمال .

ولم يكتف علماء هذه المدرسة بالتأليف والتدوين بطريق

الكلام والبسط فيه ، بل الكثرة منهم كانت لهم القدرة الفائقة على صياغة ما كتب بطريق الشعر على أحد بحوره ، وكانوا في شعرهم لا يقتصرون على الجمل الاجالية كالمثون بل كانوا ينشدون المسألة انشادا مطولا بحيث تصلح أن تكون مصدرا يعتمد عليه في استخراج المسألة بأدلتها .

فثلا علم المواريث أجد فيه أرجوزة قيمة أسماها مؤلفها⁽³⁷⁾ (كلمة صدق في تأييد الحق) وقد اقتبسها من موضوع المواريث في كتاب النيل وشفاء العليل ، وهي تقع فيما يزيد على ثلاثمائة وخمسة وأربعين بيتا .

وكذلك أرجوزة مطولة في الاجتهاد وشروطه وهي تقع فيما يزيد على أربعة وسبعين بيتا ، وسماها مؤلفها (غاية الارشاد إلى شروط الاجتهاد)⁽³⁸⁾ وهذه الأرجوزة كثيرها غنية في منهجها العلمي الذي يؤدي

(37) كلمة صدق في تأييد الحق للعالم عبد الله بن غابش النوقلي المتوفى سنة ألف وثلاثمائة وتسع وثلاثين هجرية ، وهذه الأرجوزة مطبوعة عام 1981 م ، وتقع في 46 صفحة من القطع الصغيرة .

(38) أرجوزة غاية الارشاد إلى شروط الاجتهاد ، تقع بآخر كتيب المنتخب من السنة لمؤلفها سفيان بن محمد بن عبد الله الراشدي رحمه الله ، والتي تقع على غرار الأربعين النووية الشهيرة وتزيد على الثمانين حديثا منتخبة كلها من كتب الصحاح ، وقام بطبعها ولده يحيى بن سفيان مدير معهد الدراسات الاسلامية بسلطنة عمان سنة 1396 هـ .

ملحوظة : (1) ننشر هنا بعض ما أوضحه الباحث عن وصية الأقربين لطول البحث .
(2) مؤلف شرح النيل هو محمد بن يوسف أطفيش قطب الأئمة وليس إبراهيم أطفيش (يزيل مص) كما توهم الباحث .

الغرض لمن اطلع على فنّها .
 . وغير هذا كثير من المطولات الشعرية التي شملت جميع صنوف العلم .
ومن هذا الميدان الفسيح والجمع الكبير للثروة الضخمة التي تركها علماء
الإباضية أرى أن بيان المزيد عنها يحتاج إلى زيارة الوكالة بوزارة التراث .
والسلام عليكم ورحمة الله .

د : ابراهيم عبد العزيز بدوى
مدرس الفقه المقارن بجامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين
بالقاهرة

حفل في ميزاب

... عندما تتبارى المدن والنواحي الجزائرية في
ميدان العلم والأدب وحلبة العروبة والإسلام ،
ومضمار الوفاء لسدنة هذه الثوابت ، ستقف ميزاب
في الطليعة بدون منازع .

حفل في ميزاب (1)

بقلم : د/أبو القاسم سعد الله
جامعة الجزائر (1)

إذا ذاكر العلم في بلادنا فإن الذهن ينصرف الى مراكز معينة هي تيهرت وتلمسان وبجاية وقسنطينة ، ثم تقدمت عجلة الزمن فإذا بمراكز أخرى تظهر على الخريطة هي زواوة ومعسكر ومازونة ومدينة الجزائر ، وبعد الاحتلال الفرنسي انطفأت هذه الشموع ولم يبق منها الا بصيص يخفق هنا وهناك رغم الرياح العاتية ، في تلمسان وقسنطينة وبسكرة . وقد أضيف إليها بقوة ميزاب .

كان المرحوم محمد علي دبوز يهدي إلى كتبه عن النهضة الجزائرية وأعلام الإصلاح . وهي كتب تمثل بحق مجهودا فرديا ننوء به العصبه

(1) الدكتور أبو القاسم سعد الله من أبرز المثقفين الجزائريين المعاصرين . أستاذ جامعي واسع الثقافة ، ألف في العديد من الاهتمامات ، التاريخ ، الأدب ، الشعر ، تحقيق التراث وهو عضو المجمع العلمي العربي بالقاهرة .

(1) تتلا عن الشعب ، 1990/6/7 .

أولو القوة وكنت أخرج من مجاراته في الأطروحة العامة التي يبني عليها مؤلفاته وهي التاريخ للنهضة الجزائرية بتطبيق نظرية شمال وجنوب ، وقد كان - رحمه الله - يكرر ذلك فيذكر نماذج قليلة مما يسميه «الشمال» ثم يركز ويطيل التركيز على النماذج «الجنوبية» ، وهو يعني بالشمال بعض مراكز العلم وبعض الشخصيات في المدن الساحلية وما جاورها . ويعني بالجنوب بلاد ميزاب بالذات ، فهو يؤرخ لحياة هذه المنطقة العلمية ويصف رجالها ويتحدث عن تكوينهم وأسفارهم في سبيل العلم والتحصيل وجهادهم من أجل العربية والإسلام والإصلاح .

قلت كنت متخرجاً من مجاراته في ذلك لأنني أؤمن بوحدة الوطن واقف ضد تناول حياة بلادنا من منطق الجهوية أو المذهبية . فلم أتناول كتب المرحوم دبور بالمدح أو القدر ، وأن كنت في نفسي أكبر فيه الجهد والتوثيق والغيرة الشديدة على تراث ميزاب ، وكنت أقول لعله يبالغ في ذلك ولعله ينطلق من منطق التي عرفت المنطقة خلال حوالي قرن ، عذرتة فيما ذهب إليه وازداد جهده مكانة في نفسي .

كان ذلك حين اتحت لي فرصة حضور حفلة تأبين المرحوم الشيخ إبراهيم بين يحيى القرادي في مدينة العطف يوم الثاني من شهر مايو ، وكان سفري إلى هناك صدفة ، فلم أكن مخططاً للذهاب إلى العطف ولم أسمع بالحفل إلا لمدة قصيرة قبل سفري ، بالعكس كانت عندي مشاريع أخرى أحاول التوفيق فيما بينها لحضورها أو لحضور جزء منها على الأقل ، وهي ندوة العمودي بسوف ، وندوة محمد العيد في بسكرة ، وندوة التعريب في قسنطينة وندوات خراطة .

وثالمة وسطيف وندوة السنوسي في تلمسان ، ثم ندوة المستقبل الاسلامي بالعاصمة ، فإذا بي أجد نفسي معتذراً عن حضور الجميع (عدا ندوة المستقبل الاسلامي) وحاملاً حقيقتي في اتجاه وادي ميزاب ، لقد كان ذلك من حسن الصدف طبعاً ، وللقدر تقديرات ما علينا إلا أن نتلم لها راضين مطمئنين .

دع الأيام تفعل ما تشاء

وطب نفساً إذا حكم القضاء

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي ادخل فيها ميزاب ، فقد زرتها زيارة خاطفة بعائلتي آخر عام 1970 ، فكنت عندئذ سائحاً يلتقط المعرفة بالعين المجردة ، وكان حظ العطف وبونورة ومليكة وبريان مجرد العبور ، أما بني يزقن فقد تجولت فيها وصعدت صومعتها مررت بشوارعها الضيقة ، وكان حظ غرادية المبيت في أحد فنادقها «فندق السلام» ، أما القرارة فلم يسعدني الحظ بالتعرف عليها ولو بالعين المجردة ، رغم أنها موطن معهد الحياة ومبعث الحركة العلمية المعاصرة .

أما زيارتي هذه المرة ، فقد كانت تختلف تماماً عن سابقتها . كانت زيارة علمية واخوانية لا سياحية ، منذ المطار وجدنا في استقبالنا نخبة من المثقفين يتقدمهم زميلنا الدكتور محمد ناصر : وقضينا المساء في منازل بعض المثقفين أيضاً ، جلسة هنا حول الشاي ، وجلسة هناك حول العشاء ، ولكن الحديث كان دائماً عن حالة الجزائر الراهنة ، وعن النهضة العلمية في ميزاب . وعن بعض الكتب التراثية ، وكان شيوخ العلم وبعض النواب والمندرسين والطلاب حاضرين . بعضهم جاء من بعيد للمناسبة ، أما الآخرون

فكانوا مقبين .

في صباح اليوم التالي (3 مايو) انطلقنا إلى الجامع العتيق بالعطف ، كان الطريق غاصا بالضيوف الذين جاؤوا من كل حذب وصوب ، وكان اللباس الأبيض واللحية والعراقية هي العلامات المميزة للجموع المتراسة ، اكتظ الجامع على اتساعه وكان في مقدمته ، جهة المحراب ، جمع من الشيوخ الأجلاء يتقدمهم الشيخ الاستاذ عدون ، رئيس مجلس عمي سعيد ، وهو عند الميزابين مجلس الحل والعقد أو الهيئة العليا التي تعنى بالشؤون الدينية ، بالإضافة الى الضيوف القرباء والبعداء ، وقد عودنا بعض المنشطين للحياة الثقافية في الجزائر عقد مثل هذه اللقاءات في قاعات من نوع آخر ، فيها النصّة وفيها الأضواء الكاشفة والخافتة وفيها الكراسي الوثيرة والممرات المستقيمة أما حفلنا هذا فقد جرى في الجامع الذي شيد في الاسلام على التقوى والجهاد والعلم ، يجلس المسلم فيه متربعا إلى جانب المسلم ، الركبة بالركبة والكتف إلى جانب الكتف ، بدون منصة وإكراسي ولا ممرات ، هكذا الجامع إذن ، فهو الموحد للصفوف ، وهو الاشعاع في العلم وهو التوجه بكل ذلك إلى الله .

افتتح الحفل بآيات بينات من الذكر الحكيم ، ثم تعاقب المتكلمون ، فكان أولهم هو الشيخ عدون ، وتنوعت الكلمات والتدخلات ، فكانت الأناشيد والمدائح الدينية والوطنية «ومنها ما نظمه المرحوم الشيخ القراي نفسه» تترنم بها براعم من الفتيان وكانت المحاضرات الدسمة التي يحلل فيها المحاضر الوضع الاجتماعي والسياسي والأدبي لميزاب على عهد المرحوم القراي .

وكانت الكلمات الحافلة بالذكريات المعطرة عن الشيخ الفقيد ،

وغالبا ما كان يتخلل هذه الكلمات الذكرىاتية الاجهاش بالبكاء ،
ومن لا تتندى عيناه بالدموع وهو يتبع إلى صديق مخلص للفقيه
يقص موافقه الوطنية والانسانية بعبارات مليئة بالحزن المبرح والألم
الدفين ؟ أن الموت أقوى قاهر للإنسان وأكبر كاشف لضعفه ، أننا
نقبل الموت لأنه قضاء وقدر وليس عن رضى واختيار منا ، ذلك أنه
يلبنا أعز الأكياد والأباء والأصدقاء .

تبارى المتكلمون طيلة الصباح والمساء ، فالشعر يجعلك
تتخيل أنك في سوق عكاظ والنثر يذكرك بعهد الجاحظ
والمبرد وأبي علي القالي ، لو بحثنا عن سوق نافقة للأدب
العربي في الجزائر المعاصرة لوجدناها في ميزاب .، فالقوم
لا يزالون على عهدهم بالشعر الجميل والنثر الجزيل ، يحسون
بوقع الكلمات وموسيقى النبرات وجلال المقاطع ، لقد
جعلت منهم الصحراء الصافية .، والمعاهد العلمية التي
تخرجوا منها وحافظوا عليها بالنواجذ ، مثل معهد
الحياة ، والموروث الحضاري الضخم من عهد الدولة
الرستمية ، مرورا بمعاهد العلم في المشرق العربي والزيتونة
بتونس قلت جعلت منهم بحق «بلابل» الأدب العربي في
الجزائر ، ينشدونه عن حب وسليقة ، ويكتبونه عن
رغبة وصدق ، ويحفظونه عن فخر واعتزاز ، لقد جعلتني
الحركة البربرية - الفرنكفونية - الشيوعية التي ظهرت
في زواوة أضع يدي على قلبي خوفاً على مصير الكلمة
العربية القرآنية الجميلة في وطننا ، ولكن ما رأيته
وأحست به في ميزاب جعلني مطمئن البال متفائلا

بالمستقبل السعيد لهذا الوطن العزيز .

ما يلفت نظرك في هذا الحفل أن غدا من المتكلمين كانوا ممثلين لجمعيات ثقافية وأدبية وعلمية ، وهي جمعيات تحمل عناوين في غاية الجمال والدلالة ، هي جمعيات انشئت لخدمة الثقافة العربية والاسلامية ولجمع الثمل وتقريب الأذهان وإطلاق الألسنة بالأدب الرفيع والأخلاق الكريمة ، والتغني بالوطن والعروبة والاسلام ، وإليك نماذج من هذه الجمعيات التي كانت حاضرة ممثلة في المتكلمين باسمها ، أي أولئك الذين ألقوا كلمات في تكريم وتأيين المرحوم القراي مشاركة لأخوانهم في المصاب الجلل : جمعية الحياة ، جمعية النهضة ، جمعية التراث ، جمعية الاصلاح ، جمعية الفتح ، جمعية الثبات ، جمعية الوفاق ، جمعية النور ، ثم الجمعية الجابرية ، ومجموعة الفن والأدب الاسلامي ، الخ ألا يدل هذا على ذوق سليم ؟ إلا يدل على الالتزام بالانتماء العربي الاسلامي ؟ الا يعطي برنامج عمل كامل للحياة المدنية التي سبقت بها ميزاب اخواتها الجزائريات ؟ بالنسبة لي فقد فهمت أن الجزائر بخير ما دام فيها مثل هذه القلعة الحصينة الملتزمة بثوابت التاريخ والأدب والدين والوطنية .

وهناك نقطة أخرى تجعلك متفائلا أيضا ، وهي أن ميزاب ما تزال محافظة على تقاليد اجتماعية بينما نفس هذه التقاليد قد أخذت تتلاشى في أماكن أخرى تاركة مكانها لواردات غريبة ، يبدو أنها غير منسجمة مع عقلية شعبنا ، فأهل ميزاب الذين هم جزء لا يتجزأ من الشعب الجزائري ، مترابطون ترابطا اجتماعيا وثقافيا بحيث

يصدق عليهم الحديث الشريف «كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا» . فلكل قرية «عزابة» أو جماعة تسهر على مصالحها وتنظم شؤونها وتقرر حتى في المسائل الحساسة أو الشائكة أو الأخلاقية ، ومن ثمة فجتمع كل قرية يعرف أنه مصان ومراقب ومتربط عن طريق هذه الحلقة المتينة ، ومن ثمة أيضا جاء الولاء اليها «أي العزابة» سنة حميدة يلتزم بها الجميع وتمثل احترام الصغير للكبير في الحس والمعنى .

وبالإضافة الى هذه العزابة هناك أيضا مجلس أعلى يحكم اليه الناس يسمونه «مجلس عمي سعيد» ، وهو كما سبق هيئة عليا ذات سلطة معنوية كبيرة ، ورئيه الحالي هو الشيخ عدون . ولا يتولاه الا من كان يتمتع بقوة علمية وأخلاقية عالية ، أن هذه المؤسسات التقليدية ، بالإضافة الى روح التعاون والترابط عن طريق العشيرة ، تجعل مجتمع ميزاب كخلية النحل نشاطا ونامسا وتفاعلا ، كما تحفظه من الانحلال والذوبان والاستلاب ، ومثل هذه المؤسسات كانت موجودة في إشكال أخرى في أكثر من جهات القطر الجزائري ، ولا سيما في بلاد القبائل حيث نظام الجماعة وسلطة الأمناء ، ولكن هذه المؤسسات أخذت تتلاشى في بلاد القبائل مما جعل الجبل الجديد غير مرتبط بالجيل القديم وجعل مجتمعا في هذه الأماكن يتطور بطريقة الطفرة والارتجال والعشوائية ، وهو ما جعله عرضة أيضا للفراغ والاستلاب بحثا عن بدائل قد تكون مستوردة وقد يكون ضررها أكثر من نفعها .

ومن أبرز ما لاحظته في هذا الصدد ونحن بميزاب ، أن

«الديمقراطية» بالمفهوم الجزائري كانت ممثلة في نظام الجلوس وفي وجبات الطعام وفي نمط اللباس ، فأنت تحس بأن هناك مساواة نشيطه بالمفهوم الاسلامي الاول الكل يجلس حيث انتهى به المجلس ، والكل يأكل من طعام واحد ويتقشف أيضاً ، والكل يلبس لباسا متشابهاً في القيمة والزى ، وتكاليف الضيوف ، بما فيهم بنو ميزاب أنفسهم ، على العشرة ، وهكذا كانت وجبة الغداء مثلاً بدار «عشرة آت المخرج» وهي مبنى يتسع لعدد كبير من الزوار وله وسط واسع لم تنضد فيه الموائد بالطريقة المعروفة ولكن يجلس الناس فيه على شكل حلقات من سبعة إلى عشرة أفراد ، ومن لم يجد مكاناً في هذا الوسط عليه بالصعود إلى طابق أعلى يخضع لنفس النظام ، والمبنى مجهز لأنشطة ثقافية أخرى أيضاً ، فقد رأينا فيه معلقات وصورا وغير ذلك .

ولم تنح لي زيارة الباستين في ميزاب ، ولكني أعرف أنها تمتاز باستثمار أكبر قدر ممكن من الأرض ، رغم أن الأرض بخيلة وصحراوية قاسية أحيانا ، وهم يستنبتون النخيل والفكاهة والبقول والخضروات ، وقد صادف وصولنا بقايا المطر والحب الحبلى الذائكة ، والبرد غير الفصلي ، فتساءلت في نفسي كيف يمكن أن ينمو النخيل في هذه الطبيعة ؟ ولكني رأيت صباح يوم 90.05.03 مضيفنا يعمل على قطعة أرض مرتفعة تكاد تكون قاحلة واقعة في مثلث بين ثلاثة جبال جرداء ، فكان هو ومن معه يسوون الأرض وينظفونها من الحجارة ، وقد مد الأنابيب للسقي ، ووضع الحواجز الواقية من الانجراف عندما ينهمر السيل من أعالي الجبال ، وقد

أطلعنا على كيفية تفتيت بعض الصخور عن طريق الألغام ، كل ذلك لكي يغرس النخيل ويزرع بين كل نخلة وأرى الخضر والفاكهة ، وقد ذكرتني صعوبة معالجة الأرض بالطريقة الأصعب منها التي يعالج بها أهل سوف غرسة النخيل بالنظام القديم ، أي عندما كانوا يصارعون كثبان الرمال بحثا عن الماء لكي يضعوا النخلة على مشارفه ، وكل من أهل ميزاب وأهل سوف قد عرفوا الصبر والمعاناة من أجل العيش والبقاء .

وعلى ذكر المحافظة أشير إلى أن هناك تواصلا في الأفكار وفي الأجيال في ميزاب ، ولما نسمع أو نقرأ عن حركة أو شخص شذ عن الرأي العام ، أو أثناء الملتقى الذي نحن بصده أحست من كلام بعض الشيوخ أن هناك خوفا من طفرات الشباب نتيجة للمؤثرات التي تعرفها الجزائر في عمومها ، ولذلك جاء خطاب الشيوخ مليئا بالنصح والتحذير والدعاء بأن يحافظ الجيل الجديد على تراث الأجداد ويلتزم بخط سيرهم .

أما عند الحديث عن الماضي فالوصف الذي يذكره المتكلمون عن الجيل السابق وهو وصف الجمود والتطور أو المحافظة والإصلاح ، وغالبا ما يشار الى معهد الحياة بالقراءة على أنه مصدر الحركة الإصلاحية في ميزاب ، أي النهضة التعليمية التي جاءت بعد غفوة طويلة ، وفي هذا السياق يشار إلى البعثات التعليمية التي توجهت الى تونس وغيرها للمزيد من العلم ، وهكذا يوصف أعداء الإصلاح والتطور بالجامدين والمحافظين الذين حاولوا تأخير القطار بدون جدوى .

وليس هذا مقام التعريف بالمرحوم الشيخ الحاج ابراهيم

الفرادي ، فهذه الكلمة كتبناها عن حفلة تأبينه لا عن حياته وجهوده ، وأنا لا أعرف المرحوم ولم أقرأ له من قبل ، ولكن ما سمعناه من محاضرات وخطب وذكريات عنه وما قرأنا عنه مما وزع علينا أثناء الحفل من آثاره⁽¹²⁾ ، كل ذلك يجعله في نظرنا شخصية متميزة في عالم الوطنية والأدب والدين ، فقد ولد بالعطف إحدى مدن ميزاب التاريخية ، في 31 مارس 1923 ، وتوفاه الله بالمدينة المنورة في 4 يوليو 1989 أثناء موسم الحج ، وقد ربط كثير من المتكلمين والشعراء بين حياة الفقيد والمكان الذي اختاره الله لوفاته حيث دفن بالبقيع .

فكان هذا الربط زيادة في التأثير على الحاضرين ذلك أن مصير الإنسان غير معلوم (وما تدري نفس بأي أرض تموت) وكون روح الفقيد قد فاضت وهو يصلي في المسجد النبوي ، دليلا في نظرهم على قربته من الله وعلامة رضاه عنه ، وكان الشيخ القراقي قد تعلم في عاصمة الجزائر وفي تونس وفي معهد الحياة بالقرارة حيث تتلمذ على الشيخ الشهير إبراهيم بيوض ، ثم أصبح من معلمي هذا المعهد ، وفي مدرسة النهضة بالعطف حيث تولى إدارتها أيضا فترة طويلة ، وأثناء ذلك أثر على التلاميذ الذين بقوا يدينون له بالولاء العلمي .

وبالإضافة إلى هذا الدور لعب الشيخ القراقي أدوارا أخرى في الحياة العامة منها أنه كان من النشيطين في الكشافة الإسلامية ، وفي إدارة دار الفكر الإسلامي بالعاصمة التي كانت تصدر مجلة بنفس الاسم ، ثم في إدارة المطبعة العربية بالعاصمة ، وقد أصبح عضوا في

(12) محمد زعر . الشيخ القراقي . حياته وآثاره . نشر جمعية النهضة . بالعينف 1990 .

جمعية القيم ، وأنضمَّ إلى حلقة العزابة منذ 1961 ، وترأس عشيرته على طريقة أهل ميزاب ، كما عمل في جبهة التحرير الوطني أيام الثورة ، وتولى الكتابة في مجلس عمى سعيد .

أما نشاطه العلمي فيبدو أن الفقيه كان منصرفا ، مثل أغلب علماء الجزائر خلال المائة سنة الماضية ، الى تكوين الرجال وأداء الأعمال العائدة بالفائدة على الحياة الثقافية ، أما التأليف فلم يشتهر به وأما ترك مقالات وكتابات وعد الفيورون على تراثه بجمعها ونشرها ، وقد بادر زميلنا الدكتور محمد ناصر إلى ذلك إذ أنه نشر الحلقة الاولى من أعمال الشيخ القراي ، وقد قم ما في هذه الحلقة إلى عناوين رئيسية هي :

1 - الدين والاجتماع ، 2 - والثقافة ، 3 - والسياسة والتاريخ ، 4 - والأشعار ، 5 - والرسائل .

وتدل هذه الآثار على أن الشيخ القراي كان يعيش واقع بلاده الجزائر وقضايا موطنه الصغير ميزاب ، وكان مهتما بشؤون المجتمع والاسلام والتعليم والاستشراق .

عندما تتبارى المدن والنواحي الجزائرية في ميدان العلم والأدب وحلبة العروبة والاسلام ومضمار الوفاء لبدنة هذه الثوابت ، ستقف ميزاب في الطليعة بدون منازع ، وقد قلت لأخواننا الميزابيين أن غيركم يقف كثيرًا ولكن بدون ماء ، ويجمع كثيرا ولكن بدون طحن ، أما أنتم فلکم الفيض من الماء والعزم من الطحن ، ومن حقكم على الجزائر أن تعرف ماءكم وطحنكم وأن تتغذى منه كل الجهات والنواحي ، ومن حق الجزائر عليكم أن تمدوها بما

عندكم من رصيد في الأدب والعلم ، والتضامن والجد ، ومن
روح المبادرة والوفاء ، وفوق كل ذلك ما عندكم من غيرة
عمرية على تراث الاسلام ولغة القرآن .

أبو القاسم سعد الله
الجزائر في 31 مايو 1990

مدخل لدراسة الدولة
الرسمية واسهامها في التطور
الفكري والحضاري

« . . . إن هذا الحكم الإسلامي الرسمي المتين ،
كان من أحسن النظم التي انتشرت ببلاد الإسلام ،
فالإمام هو الذي يقود رأس الدولة ويده مقاليد
أمور الدين والدنيا معاً ، كان محاطاً بجماعة
(الشرأة) وهم علماء المذهب وكبار رجال الرأي
من الإباضية ، وهو لا يحكم إلا بهم ، ولا يسير
إلا مع رأيهم . . . » .

مدخل لدراسة الدولة الرستمية وأسهامها في التطور الفكري والحضاري (1)

دراسة بقلم الشيخ أحمد توفيق المدني (رحمه الله)

مؤرخ - (الجزائر) - (1)

سادتي الفضلاء . أبنائي البررة الكرام .
لقد أحسن الذين اختاروا لهذا الملتقى الزاهر ، موضوع
مساهمة الرستمين في الحضارة وفكر الاسلام ، فهذه الدولة
الرستمية الجزائرية الصميمة ، والمسلمة الصادقة ، قد نالها في
التاريخ ظلم فاحش ، وغمط حقها بصفة جائرة ، إذ تعمد
أغلب المؤرخين تناسيها ، أو الدسّ عليها وذلك ارضاء للملوك
وامراء من خصوم مذهبها ، وهو في حقيقته اسلامي أصيل .
وقبل أن تلجوا سادتي وابنائني هذا الموضوع ، في ملتقى

(1) الشيخ أحمد توفيق المدني جزائري ، يعتبر من أوائل المؤرخين
الجزائريين المعاصرين ، ألف العديد من الكتب في تاريخ الجزائر وكان
الرائد فيها . معروف بنشاطه السياسي والثقافي المتنوع ، توفي بالجزائر في
سنة 1984 .

(1) ألقيت هذه المحاضرة بالملتقى الحادي عشر لفكر الاسلامي . انعقد بمدينة ورجلان
ما بين 6-15 فيفري من سنة 1977 م .

اسلامي زاهر ، أرى من واجبي أن أقدم لكم هذا المدخل ،
وفيه ملاحظات عدة لا بد منها ، لكي تتبين لكم عند
الدراسة التي ستقدمون عليها ، معالم الطريق .

أول هذه الملاحظات اننا عند دراستنا لهذه الحقبة من
حضارتنا الاسلامية في الأرض الجزائرية ، يجب علينا قبل
كل شيء أن نتجرد عن كل تعصب مذهبي لا يتفق مع
الاسلام الخفيف ولا يسير من المنهاج العلمي الصحيح في
دراسة الحضارات . فالإسلام دين الله الخالد واحد لا
يتجزأ ، ومهما تعددت فيه المذاهب الاجتهادية والفكرية ،
فإن ذلك مجرد نظريات نابعة من صميه ، لا تزيده إلا عمقا
ورسوخا ، فكلام الله وسنة رسوله ، وسيرة الخلفاء الراشدين
ومن تبعهم بإحسان ، جعلت ذلك الدين الخالد ديننا عالميا ،
علميا ، حضاريا ، نظاميا ، محترما في أصوله وفي قواعده ،
واحدا في فكره وفي مناهجه ، فإذا ما اختلفت فيه بعض
الفروع ، فإنها تجتمع لا محالة حول الأصول .

فالتعصب لمذهب ضد مذهب ، واتخاذ المذاهب
الاسلامية المختلفة مطية للوصول إلى مقاعد الحكم الزائل ، أو
وسيلة للاستحواذ على النفوذ السياسي في بقعة من بقاع
الأرض انما ذلك هو الفساد المبين .

ولنأخذ على ذلك الحيف التاريخي مثلا من الزمن
القديم . فهذا عبد الرحمان بن خلدون المؤرخ الاسلامي
للمغرب العربي الكبير ، يؤلف موسوعته التاريخية العظيمة ،
وهو بأرض المغرب يسجل تاريخ الامازيغيين ، ويفصل ما

جل وما قل من أمورهم ، ومن دولهم واماراتهم ، ويذكر إلى جانب ذلك تاريخ من جاورهم ومن حل بأرضهم من مختلف الأقوام حتى اتنا لنراه يذكر تاريخ بني سلامة وقلعتهم ، ولو لم يحل بها ويكتب بها جزءا منها من مقدمته الخالدة لما كان التاريخ يذكرها بخير أو بشر ، لكننا مقابل ذلك لانراه يعني بدولة الرستيين الاباضية إلا قليلا ، وفي صفحات متباعدة يسيرة ، ويدعو مذهبها «بدعة» وهي أول دولة أمازيغية منظمة في الاسلام ، انتشرت فوق أديم الأرض الجزائرية واستقرت ما يزيد عن الثلاثين ومائة سنة .

فهل كان يحفل تفاصيل وجودها ، ونظام حكمها ؟ أو كان ينكر فضلها ؟ أو كان يستهين بما أحدثته أيام حكمها الزاهر من نظم أساسية مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ؟ كلا . ان ذلك الفكر العبقري الذي اعتصر من سنن الحياة ومن تاريخ الحضارة الانسانية قاطبة مقدمته التي : اصبحت معلمة عالمية ، لا يمكن أن ينسى دولة قامت على أرض المغرب الأوسط ، ولا يمكن ان يتغافل عن وجود حضارة اسلامية صحبت تلك الدولة واستمرت معها ، ثم هي لا تزال الى يوم الناس هذا ، موجودة ، شائخة برأسها ، ذائدة عن كيانها . فما كان منه ذلك الاهمال وذلك التحقير الذي يوجب علينا اتهامه بسرقة دولة مغربية زاهرة ، الا لتعصب مذهبي ، وارضاء لخصوم ذلك المذهب ، من الملوك والأمراء .

ثم لنأخذ على ذلك مثلاً من التاريخ المعاصر : ففي أوائل نشأة جامعة الدول العربية ، نشرت مصوراً جغرافياً جامعاً ، حشرت فيه حشراً طيباً ، مفيداً ، مختلف حقب تاريخ البلاد العربية الشرقية والغربية ، التي اشتركت في حكم البلاد في نفس الوقت ، لكنها عندما تناولت بلاد الجزائر في أوائل القرن الهجري الثاني ، ذكرت «الامارات البربرية» ، بدل أن تذكر دولة بني رستم . فهل كانت جامعة الدول العربية ، أو الذين وضعوا لها ذلك المصور التاريخي الملون ، يجهلون وجود دولة بني رستم في التاريخ ؟

إن كنت لا تدري فتلك مصيبة . وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم فلترك سادتي وابنائي جانباً كل تعصب مذهبي ، ولندرس تاريخنا الخاص ، ولندرس تاريخ الاسلام العام ، كوحدة دينية راسخة ، متماسكة ، ثم لندرس تاريخ المذاهب الاسلامية - كل المذاهب الاسلامية المستمدة من الكتاب والسنة - كوجهات نظر عميقة ، استمدت من الاسلام الحنيف ، ومن أوضاع البيئة الخاصة التي ترعرعت بين احضانها ، وكيانها ، واستوحت منها سنة عملها ، ثم لنجردها عند دراستنا لها من كل الأغراض السياسية التي صحبتها أو التي الصقت بها . يومئذ . ويومئذ فقط ، نجد انفسنا ، وفي دائرة الاسلام الحنيف ، امام ثروة زاخرة من الأفكار النيرة ، ومن النظريات العميقة الصالحة ، ومن مناهج الحياة المثمرة .

أما الملاحظة الثانية التي ابدتها قبل شروعكم في دراسة الدولة الرستمية ، واسهامها في تطور الفكر والحضارة في الاسلام ، فهي متعلقة بذلك الخلط المغيب الذي وقع فيه الكثير من مفكرينا ومن مؤرخينا ، قديما وحديثا ، حول قضية الخوارج ، وما صاحبها من مآس ومن فضائع ، وحول قضية الخلط بين الصفيرية وبين المذهب الاباضي النقي المعمول به في بلادنا ، والذي لا يزال حيا موجودا .

تقول أولا ان قضية الخوارج هذه كانت في مبدأ أمرها قضية فكر ورأى واجتهاد . وان الذين قاموا بها كانوا من أكبر وأعظم انصار علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، في حربه لمعاوية بن أبي سفيان ومن معه من أهل الشام ، دفاعا عن فكرة الخلافة الحقّة ، وإمعانا في السير على سُنّة من سبقه من الخلفاء .

لقد راجع اولئك الانصار موقفهم بعد معركة صفين ، ورأوا أنهم قد وقعوا في احيولة نصبها الداهية عمرو بن العاص ، حين اشار على معاوية بعد انكسار جيشه وتبدد شمل أنصاره من المرتزقة ، رفع المصاحف على الرماح ، والمناذاة بالرجوع إلى كتاب الله ، ثم كانت قضية التحكيم المشهورة في التاريخ ، التي قبلها الخوارج لأول وهلة ، ورفضها علي . ثم قبلها انصياعا لرأيهم وهو كاره . ثم تأملوا فوجدوا أنهم أحدثوا بدعة في الاسلام بقبولهم التحكيم فتأبوا إلى الله وأنابوا ، وأرادوا حمل علي بن أبي طالب على التوبة معهم ، وتقض اتفاق التحكيم ، فأبى وقال : ما عصيت الله ،

إنما سرت مع رأيكم وأنا كاره ، وليس علي أن أتوب ولم أذنب . وهكذا استفحل أمر هذا الخلاف في الرأي فأدى إلى خروجهم عنه ، ثم إلى مأساة النهروان ، ثم إلى ضياع الخلافة الإسلامية الشورية ، ثم إلى مصرع رابع الخلفاء الراشدين ، وأكثر المسلمين علما وبيانا ، علي بن أبي طالب .

تفرقت بقايا الخوارج بعد ذلك في مشارق الأرض ومغاربها ، كما تفرقت آراؤهم وتشعبت مذاهبهم ، واختلط امرهم على الكثير من الباحثين والمؤرخين ، فلم يفرقوا بين الخوارج أصحاب الفكرة الدينية اليساية ، وبين الصفرين المتقدم ذرهم ، وبين أصحاب المذهب الاباضي الذين قاموا بتأسيس دولة بني رستم .

فهل الاباضيون من الخوارج ؟

هذا سؤال وجيه ، نستطيع أن نجيب عنه ، ونحن ننتخرج الحقائق من بين ركام التاريخ ، أن الاباضيين بعداء عن الخوارج ، وبعداء جدا عن فرقة (الصفرية) التي تمثل بقايا الخوارج ، والتي ثارت ثورة عارمة على الولاة العرب بالقطر المغربي الكبير ، وخاصة الأوسط منه ، سنة 122 هجرية ، فالصفرية الخوارج كانوا مثلا يحكون بالشرك على مرتكب الكبيرة ، بينا الاباضية ، كبقية المذاهب الإسلامية لا يحكون على مرتكب الكبيرة بالشرك والخروج عن الإسلام . والصفرية ، مثلا ، يوجبون على الجماعة الإسلامية الانتقاض على الملوك والأمراء المسلمين ، من أجل إقامة الحكم الإسلامي الصالح . حسب مذهبهم ، ويحكون بالعصيان على

من تخلف عن ذلك ، بينا الاباضيون يرون ان ذلك الانتقاض جائز اذا ما أنس المؤمنون الكفاءة في انفسهم من أجل القيام بذلك .

والصفريّة غلاة في الدين إلى درجة الإفراط . فهم يفسكون الدماء سفكا ذريعا ، وهم يعتبرون مال خصومهم من المسلمين غنيمة ، وإن ابناهم ونساءهم بعد المعارك سي ، بينا الاباضيون يتقيدون في ذلك بنصوص الشريعة .

ولقد كان أول إمام للاباضيين ، نادوا به بعد واقعة التحكيم ، سنة 37 للهجرة ، هو ((عبد الله بن وهب الراسبي)) . أما صاحب مذهبهم الحقيقي ، فهو العلامة جابر بن زيد ، إنما نسبوا بعد ذلك لعبد الله بن اباض ، الذي قام بنشر المذهب وتدوينه ، أن عبد الله بن اباض كان . بالنسبة لجابر بن زيد ، كأبي يوسف بالنسبة للإمام أبي حنيفة .

الملاحظة الثالثة ، التي يجب علينا ذكرها عند دراسة تاريخ الدولة الرستمية الاباضية ، هي أن الاباضيين الذين هم ليسوا من الخوارج ، لا يفيضون عليا بن أبي طالب رضي الله عنه ، كما يفيضه الخوارج ، ولا يكفرونه ، إنما يشتركون في مخالفة رأيه في قضية التحكيم فقط ولم يعادوه ، بل أننا نرى من خلال دراستنا لتاريخ بني أمية ، أنهم كانوا منذ عهد معاوية ، يلعنون عليا رضي الله عنه من فوق المنابر يوم الجمعة ، ودام ذلك إلى أيام الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز ، فجاءه وفد من الاباضيين يضم علماءهم واقطاعهم ،

وطلبوا اليه ان يكف عن هذه البدعة الفظيعة ، وصادف ذلك هوى في نفسه . فأصدر أمره بالعدول عن ذلك السب المقدم ، واستبداله بآية (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظم لعلمكم تذكرون) ولا تزال تلك السنة الحسنة جارية إلى يومنا هذا .

الملاحظة الرابعة ، سادتي وابنائي ، هي أن الرستيين ليواهم الذين ادخلوا المذهب الاباضي الى أقطارنا ، بل ان ذلك المذهب انتشر في بلادنا قبل ذلك انتشارا كبيرا ، منذ ثورة الصفريين سنة 122 ، على الولاة العرب في عصرهم ، فالدولة الرستية قامت لرعاية ذلك المذهب ، وصانته ، والمير به في اعتدال وساحة ويمن ، كما جاء به الدين الحنيف ، مهذبة وميسرة ، وملطفة ، حسب تعليقات الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه : (بشروا ولا تنفروا ، وبشروا ولا تعسروا) .

هذه سادتي وابنائي ، بعض ملاحظات عامة ، رأيت وجوب الادلاء بها ، قبل شروعكم في بحث وتمحيص التاريخ الرستمي ، ومدى إسهامه في حضارة وفكر الاسلام .

ولنطو الآن عنان البحث الى قضية اخرى اساسية ، هي قضية الخلافات بين المذهب الاباضي والمذهب المالكي الذي نشأ بعده ، وهو المذهب السائد ببلادنا المغربية ، ذلك أن العامة والكثير من الخاصة ، يعتقدون أن هذا الخلاف المذهبي كبير وعظيم ، لا يمكن تلافيه أو التغلب عليه ،

ويجهلون أن المذهبين يسيان نحو الغاية الواحدة ، من طريقين مختلفين .

الحقيقة هي غير ذلك فالسياسة وحدها هي التي كونت هذا الخلاف ، وزادته حدة وشدة حتى إذا ما جثم كابوس الاستعمار الفرنسي الفظيع على صدر أمة الاسلام بأرضنا الجزائرية أمعن في الفصل بين المذهبين تنفيذاً لسياسته، فرق تسد ، إلى أن أصبحوا دون حياء يقررون في كتبهم الدراسية التي يتناولها صفار الطلاب ، ان الخلاف بله العداوة مستحكة الحلقات إذا رجعنا إلى عقلاء الجانبين وعلمائهم ، ودرسنا مشاكل هذا الخلاف ، وجدنا انها تتعلق بعدد قليل من القضايا ، اغلبها يتعلق بأمر الآخرة ، وانها لا توجب نفرة ، ولا تشوجب فرقة ، انها تكاد تنحصر في القضايا التالية :

(1) المجاز في القرآن الشريف . فالاباضيون يقولون به . ويوافقهم على ذلك أصحاب الفكر الحر من المعتزلة ومن بقية المذاهب ، وذلك فرازا من التجسيم بالنسبة لجلال الحضرة الالهية المقدسة ، فيقولون ان قوله تعالى : (يد الله فوق أيديهم) ، يعني أن قوته فوق قوتهم ، فاليد والعين في القرآن ، معناهما القوة والعناية .

(2) الخلافة في قریش لا يؤمن بها الاباضيون ، ولا يأخذون بالحديث الوارد في شأنها ويقولون انه مفتعل ، فعندهم ان الخلافة الاسلامية هي ملك لكامل أمة الاسلام قاطبة . حسب قوله تعالى . (ان أكرمكم عند الله أتقاكم)

وتنفيذا ، للآية الكريمة : (وأمرهم شورى بينهم) . فعلى المسلمين أن يقلّدوا الخلافة من هو أحق بها ، مهما كان لونه ومهما كان نسه . وقد جاء في صحيح الحديث : (لا فضل لعربي على أعجمي الا بالتقوى ، كلّم لآدم ، وآدم من تراب) .

(3) يقول الأشاعرة ، إن المؤمنين الصادقين يرون الله رأي العين يوم القيامة . لكن الإباضيين يقولون : إن الله جل جلاله أعظم وأكبر من أن يستطيع البشر رؤيته ، ولو يوم القيامة وكذلك يقولون في كلام الله لموسى عليه السلام ، ويحكمون باستحالاته . ولهم على ذلك أدلة من كتاب الله .

(4) يقول الإباضيون ، إن الحق في الأصول لا يتعدد . فالمجتهد المخطيء في الأصول غير معذور . وإن إيمان المقلّد غير صحيح . بينما يقول الأشاعرة بصحة إيمان المقلّد . وبأن المجتهد المخطيء في الأصول معذور .

(5) وهناك خلاف أيضا في تحديد معنى الكفر . ومعنى النفاق . فالأشاعرة ومنهم المالكية يرون أن الكفر لا يطلق إلا على المشرك بالله . ويرون أن النفاق إنما هو التظاهر بالإيمان والتوحيد وإخفاء الشرك : أما الإباضيون فيقولون إن الكفر يطلق على معنيين ، هما الشرك والنفاق . وأن النفاق يطلق على معنيين . نفاق خيانة ، أي ارتكاب كبيرة من الكبائر . ونفاق تحليل وتحريم ، فالإباضي يطلق كلمة الكفر على معنى النفاق أي الفسوق . ولا يعني به الشرك .

(6) قضية الشفاعة . يقول الاباضيون : إن الشفاعة الواردة في القرآن بالنسبة ليوم القيامة لا تنال من مات على كبيرة . وإنما تنال من مات على الوفاء . بينما يقول الاشاعرة إن الشفاعة تنال أيضاً أصحاب الكبائر .

(7) هناك قضية القرآن الكريم ، التي وقعت فيها المحنة الكبرى أيام المأمون العباسي ومن بعده . فالاباضيون ، قبل المعتزلة ، يقولون بأن الله خلق ، وأن الله وحده هو القديم . بينما يقول الاشاعرة بعد ذلك ، يقولون بقديم القرآن ، بصفته كلام الله . فالله قديم بوجوده وكلامه .

(8) أما قضية صفات الله ، وهي قضية نظرية بحثة ، فالاشاعرة يقولون إن صفات الله غير ذات الله ، بينما يقول الاباضيون إن الله وصفاته أمر واحد ، بمعنى أن الله جل جلاله الكمال المطلق .

(9) يقول الاباضيون إن من مات عن كبيرة وعن غير توبة ، فهو خالد في النار ، بينما يقول الاشاعرة إن الذي مات عن كبيرة ودون توبة ، وهو مؤمن بالله وبرسوله ، إنما هو تحت مشيئة الله ، إن شاء عذبه على مقدار معصية ، وإن شاء غفر له .

(10) ومن هذه الخلافات النظرية الدقيقة ، قضية تعريف الايمان ، فالاباضيون يقولون ان الايمان له ركنان ، هما القول والعمل . وأنه لا يتم الا بهما معاً ، فمن آمن قولاً ، وشهد ان لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ، ثم لم يعمل بما جاء به الاسلام ، فهو ليس بمؤمن . بينما يقول الاشاعرة إن

الايمان بقواعده الحسة ، ولو دون عمل ، يكفي للنجاة من النار .

هذه أيها السادة والأبناء ، هي أهم نقط الخلاف النظرية بين الأشاعرة وبين الإباضيين وهي كما ترون قضايا نظرية واجتهادية بحجة ، ولكل من الطرفين أدلته وبراهينه من الكتاب والسنة . ثم إن النظريات الإباضية التي ذكرناها ، لا تفرد بها أصحاب هذا المذهب فقط بل يشاركه في كل منها بعض المذاهب الإسلامية الأخرى . أما في الفروع وفي أحكام الإسلام ، فلا تكاد توجد خلافات . وإن وجدت فهي تافهة فأنتم ترون سادتي وأبنائي أن هذه الخلافات ما كان ينبغي أن توجد نفرة أو تحدث شقاقاً بين جماعة المسلمين ، لولا ماصحها من خلافات سياسية ، ومطامع في الملك والسلطان .

أما الخلافات السياسية فقد زالت وانتهت والحمد لله ، وأصبحت نظريات كل مذهب تدرس بصفة فلسفية ، مقارنة ، وأنها بهذه الصفة لتزيد العقيدة الإسلامية عمقا ورسوخا وتزيد الفكر الحر اتساعا وشمولا .

بل إن العلامة الإباضي ، المجاهد سليمان باشا الباروني رحمه الله ، ليقول ، ونحن في ذلك معه ، ما نصه : (متى يأتي يوم لا يذكر فيه المسلمون في الشرق ولا في الغرب إلا الله ورسوله وكتابه ، ولا يذكرون الأئمة إلا باسم علماء كغيرهم من علماء الإسلام فيصبح الدين واحدا ، والمذهب واحدا ، لا طرق فيه ولا مذاهب) .

على هذه المبادئ ، وتثبيتا ودفاعا عن هذه الأسس ، شكل العلامة القائد عبد الرحمن بن رستم الفارسي ، دولته الأباضية الكبيرة بمغربنا العربي الأوسط ، سنة 160 للهجرة . وأنشأ لها عاصمة جديدة هي تيهرت ، محاذية لتيهت القديمة ، على نحو أربعة أميال . ولنا كذلك على تأسيس هذه الدولة الأباضية القوية ، ملاحظات .

أولها : إنها أول دولة منظمة في الاسلام ، قامت مستقلة عن الدولة العباسية وهي في أوج قوتها ، فالدولة الادريسية في المغرب الأقصى ، تأسست سنة 172 للهجرة . واستقر أمر الدولة الأغلبية في القيروان والشرق بعد ذلك . وكذلك الدولة الطولونية بمصر . ودولة بني أمية بالأندلس .

وثانيها : إن دولة بني رستم كانت مستقرة فوق قاعدة شعبية متينة ، فالذهب الاباضي كان منتشرا كما ألفتنا انتشارا ذائعا بالمغرب الأوسط وبطرابلس وبجنوب البلاد ، وكانت له حروب طائلة ومصادمات عنيفة مع جند الخلافة . بلغ فيها عدد القتلى من الجهتين مبلغا مؤلما ، وأنه على أثر نكبة فادحة حلت بالاباضيين على يد القائد ابن الاشعث ، انهزم عبد الرحمان بن رستم ومن معه من علماء وكبار الإباضية الى أن حل بأواسط مغربنا الأوسط فاستقر ، وأسس العاصمة الجديدة «تيهت» وأنشأ دولته المثالية ، فكانت دولة أباضية بحثة .

ثالثها : إن تأسيس هذه الدولة التي انتشرت في مغربنا الأوسط انتشارا ذائعا ، قد انقذت البلاد من تلك الثورات

المتعاقبة ، وتلك الغارات الطاحنة ، وتلك الفوضى التي ضربت أطنابها حيناً من الدهر في كامل مغربنا ، فأنقذ الله بهذه الدولة الفتية أمن هذه البلاد ، وأعاد لها الراحة والهدوء ، فأخذت بأسباب التقدم وال عمران .

رابعها : إن هذه الدولة قد دامت في الحكم 130 سنة ، وكانت تستطيع البقاء في الحياة أكثر من ذلك ، لولا موجة عارمة نشأت بشرق الأرض الجزائرية ، ثم التأمت وقوي ساعدها بالمغرب الأقصى الشقيق ، ففاضت على البلاد مكتحة ، موحدة ، تلك هي دولة الفاطميين التي اختطت نظاماً جديداً ، ونشرت مذهباً دينياً آخر ، هو المذهب الشيعي فدولة الرستيين ما ماتت على يد شعبها ، وما انتهى حكمها لضعف مذهبها الاباضي ، انما انتهى أمرها على يد قوة جاءت من الخارج .

خامسها : إن هذا الحكم الاسلامي الرستمي المتين ، كان من أحسن النظم التي انتشرت ببلاد الاسلام . فالإمام الذي هو رأس الدولة ، ويده مقاليد أمور الدين والدنيا معا ، كان مُحاطاً بجماعة «الثرأة» وهم علماء المذهب وكبار رجال الرأي من الاباضية ، وهو لا يحكم الا بهم ولا يسير الا مع رأيهم . وهم يحفظون الدين ويرعون مصالح المسلمين حسب أصول المذهب .

وإلى جانبهم ومن بين صفوفهم يختار قضاة المسلمين الذي اشتهروا بالنزاهة والعدل وعدم التحيز الا للحق . وكانوا يجتمعون في محلات تدعى «دار القضاء» للفصل بين

خصومات المسلمين الا الجرائم التي كان يعقد لها مجلس خاص يرأسه الإمام رئيس الدولة وحوله خاصة العلماء .

ثم أنهم نظموا الشرطة نظاماً بديعاً ، يشمل المدينة العاصمة ويشمل غيرها من البلاد فلم تكن هنالك مع الشرطة أيد تستطيع الفساد .

ورتبوا جماعة الحسبة ، من أجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، تتراد الأسواق والمدن والبادية ، قائمة بما أوجبه الله ، حتى رعاية الحيوان والرفق به كانت تقوم به خير قيام ، حسباً أكده المؤرخون المنصفون .

أما بيت مال المسلمين فكان على غاية الدقة والنظام ، كما كان أيام أبي بكر وعمر .

سادها : أن هذا الحكم الاسلامي الاباضي ، وإن كان تأليه على مذهب الثوري بعيداً عن حكم العائلات لم يلم من داء الوراثة .

فبعد موت الامام ابن رستم ، ولي الامر ابنه ، لانه كان الاصلح للحكم . ثم تولى بعده أبنائه وأعمامه ، وفيهم الصالح الأكرم كأفلق واليقظان ، وفيهم الميال للحضارة والاسراف كأبي بكر بن أفلق .

سابعها : ان حركة العلم والأدب انتشرت أيام هذه الدولة انتشاراً دائماً ضاهت به حركة العلم والأدب بالفيروان ونبيغ بها شعراء من الطراز الأول بلغوا مكانة سامية .

ثامنها : ان هذه الدولة لم تمت بحضارتها ، ويعلمها ، وبمذهبها ، كما مات غيرها من الدول إذ ما كاد المد الشيعي

يعمر الأرض الجزائرية ويضمها اليه وينهي أمر تيهرت ،
حتى هاجر عامة الدولة وخاصتها بأهلهم ومتاعهم ؛
فاستقروا حيناً بصدراته ، وببني وارجلان (ورقلة) ثم حطُّوا
رحالهم نهائياً بوادي مصاب ، وما حوله ، وأسوا قراهم
البديعة ، وبساتينهم اليانعة ، وقاوموا الطبيعة فتغلبوا
عليها ، وأقاموا لمذهبهم الاباضي أسساً جديدة صلبة ، دائمة ،
صالحة ، نراها إلى الآن زاهرة زاهية ، ضمن الجامعة
الجزائرية الحرة المستقلة .

فالميزابيون اليوم ، بمذهبهم الاباضي ، وبعاداتهم ، وبتقاليدهم ، هم
اليوم من صميم القومية الجزائرية ، وانهم الامتداد الطبيعي التاريخي
لدولة بني رستم ، التي لا تزال حية بهم ، وفي سَمْتهم .
والسلام عليكم سادتي وأبنائي . وشكراً لكم جزيلاً .
أحمد توفيق المدني

فلسفة الخوارج

يقول الشهيد سيد قطب في بحثه عن فلسفة الخروج وفيه يتعرض إلى الإباضية .
« . . . رأينا الذي نرجو من ورائه الخير لنا وللمسلمين ألا يكون الخلاف المذهبي سبباً للخصومة والفرق بين طوائفهم ، وبخاصة إذا لم يؤد إلى تكفير أو قتال . ومن حسن الحظ أن في فقه الإباضية وأصول ما ذهبوا إليه من المرونة ما يسمح بالتقائهم مع غيرهم على ما يصير به المسلم مسلماً من أصول الدين وقواعده الأساسية فيما نعلم ، وفي ذلك الكفاية . . . » .

فلسفة الخوارج (1)

بقلم الشهيد سيد قطب

وإنما اخترت أدب الخوارج لأنه أدب قوم ذوو عقيدة وإن خالطها الكثير من الخطأ - وما أشد حاجتنا إلى أن نكون من أهل العقائد بعد أن طال عهد التحلل بالناس ، وما أروع الإيمان على أية صورة برز وإن كان لا ينتج الخير إلا مع الحق .

ولسنا نحاكم مذهب الخوارج ولا آراءهم بهذه الكلمات فأمرهم إلى الله ، وقد أفضوا إلى ما قدموا ، ولا تزال بقية كثيرة منهم تعيش في الوطن الاسلامي الفسيح وهم الإباضية في شمال إفريقية وفي شرقها - ورأينا الذي نرجو من ورائه الخير لنا وللمسلمين ألا يكون الخلاف المذهبي سببا للخصومة والفرقة بين طوائفهم وبخاصة إذا

(1) الشهيد الإمام سيد قطب يعتبر من رواد الحركة الإسلامية الفاعلة في العصر الحديث رادها كتابة . وسلوكاً . وجهاداً أو هو امتداد للإمام الشهيد حسن البنا . أعدته الأنظمة المصرية الظالمة في سنة 1966 .

(1) بقلم الشهيد سيد قطب . الشهاب (المصرية) ع . 15 . نرة جمادي الأولى . 1367/مارس 1948 .

لم يؤد إلى تكفير أو قتال - ومن حسن الحظ أن في فقه الإباضية وأصول ما ذهبوا إليه من المرونة ما يسمح بالتقائهم مع غيرهم على «ما يصير به المسلم مسلماً» من أصول الدين وقواعده الأساسية فيما نعم وفي ذلك الكفاية .

وكل الذي أردنا أن نستعرضه في هذه العجالة صور من أدب رائع رفيع كان مبعثه عمق الايمان وصلابة الارادة وقوة العقيدة ومضاء العزم وإيثار التضحية ومواصلة الجهاد .

فرق الخوارج

وقد كان انتقاض الخوارج أول امرهم وخروجهم انتقاضا سياسيا مبعثه عدم موافقتهم على التحكم في خلافة المسلمين ، ومن ثم أنكروا ولاية الناس وقالوا : «لا حكم إلا لله» ورد عليهم أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه بقوله : «كلمة حق يراد بها باطل» نعم إنه لا حكم إلا لله ، ولكن هؤلاء يقولون لا إمرة إلا لله ، وإنه لا بد للناس من أمير بر أو فاجر يعمل في إمرته المؤمن ويستمتع فيها الكافر ، ويبلغ الله فيها الأجل ويجمع به الفيء ، ويقتل به العدو وتأمين به السبل ، ويؤخذ به للضعيف من القوى حتى يستريح بر ويستراح من فاجر .

ثم تحولوا إلى خلافات دينية ، وجدل في فروع المسائل والأحكام وصار لهم فقه خاص مصدره تحديد صلتهم بغيرهم من المسلمين وطريق معاملتهم إياهم ، ورأيهم في الخلافة وفي حقيقة الإيمان . فهم كانوا يرون أن الخلافة من حق المسلمين عامة وتكون باختيار حر

منهم ، ومن استخلف فليس له أن يحكم أو يتنازل وليس من الضروري أن يكون قرشياً ، وكانوا يرون أن العمل جزء من الإيمان فن قصر في فريضة من فرائض الله فقد كفر - واختلفوا في أمر غيرهم من المسلمين فمنهم من رأى وجوب قتالهم ومعاملتهم كأشد الكفار كفراً لا يقبل منهم إلا الرجوع إلى الاسلام والدخول في رأيهم أو القتل بالسيف ، ومنهم من يرى التكفير والقعود عن الحرب ، ومنهم من يرى الإنكار والمخالطة وانتهى أمرهم إلى فرق أربع .

«الأزارقة» أصحاب نافع بن الأزرق .

«والنجيدات أو النجدية» أصحاب نخدة بن عامر .

«الاباضية» أصحاب عبد الله بن إباض التيمي .

«والصفرية» أتباع زياد بن الأصفر .

وقد انقرضت هذه الفرق جميعاً إلا الاباضية فبقيتهم «بشمال أفريقية بالجزائر وتونس وفي شرقها بجزيرة مسقط وما إليها» ومن علمائهم الأجلاء صديقنا الشيخ ابراهيم إطفيش ولهم كتب متداولة وهم ينكرون على غيرهم أن يطلق عليهم اسم الخوارج ، ويقولون نحن فئة من المسلمين لنا أراؤنا وما ذهبنا إليه مع إيماننا بالله ورسوله وكتابه فما بالك تفردونا بهذا الوصف وتخصونا به وهو اعتراض له وجاهته ، ولئن كان لهذه التسمية ما يروها في الماضي فما أحوجنا أن تناساها اليوم والمسلم أخو المسلم .

فلسفة الخوارج :

وليس غريباً أن يخرج على الجماعة الصالحة بعض أفرادها وليس

غريباً كذلك أن يكون الكثير من هؤلاء الخارجين من خيار أبنائها وخلصات رجالها فإن من خصائص الجماعة في كل عصر اختلاف الأمزجة وتضارب المصالح والأهواء ولا يقضي على المعنى الأول إلا الثقة التامة بالقيادة ولا يقضي على الأمر الثاني إلا الإخلاص الكامل والتجرد للغاية ، ولا يعين عليها معاً إلا حسن الإدراك واكتمال الوعي وتنام النضج والتوازن بين الملكات» ومن هنا كان ملاك أمر الجماعة القوية الموحدة هذه الأمور الثلاثة : الثقة بالقيادة ، والإخلاص للغاية ، وحسن الإدراك ؛ ومتى عرض الضعف لواحد من هذه الثلاثة فقد تخلخل بناء الجماعة . وكان عن هذا التخلخل ولا شك تخلف بعض الأفراد عن ضعف ثقة بالقائد ، أو عن غلبة هوى عارض ، أو عن سوء تقدير وفهم للظروف والمواقف ومقتضيات الأحوال .

كانت الجماعة الإسلامية الأولى أقوى الجماعات التي عرفها التاريخ لأن القائد فيها رسول من عند الله - ضعف الثقة به كفران ، وأن تجند فيها خلاصة المؤمنين وكلمة أهل الإخلاص لله رب العالمين ، ولأن أشعة الإيمان القوية أضاءت جوانب صدورهم وحسايا ضلوعهم فكانوا على نور من ربهم . وكان أحدهم إذا عرض له عارض من وسوسة أو سوء تقدير اعتم على إيمانه . والتجأ إلى ثقته بقيادته فاطمأن بالله وسكن خاطره . واعتبر هذا وتأمله في قول أبي بكر لعمر رضي الله عنه يوم الحديبية : «ويحك يا عمر استمسك بفرز الرجل فإنه رسول الله أو قال لك هذا العام ؟» لترى اعتصام أبي بكر رضي الله عنه بهذا الايمان العميق والتجاءه إلى الثقة بالقائد رسول الله ﷺ .

وهؤلاء الذين خرجوا على - علي كرم الله وجهه - من

الصنف الأخير لم تضعف ثقتهم به إلا قليلا . ولم يخالطهم
هوى أو غاية لأنهم آثروا أن يحملوا عبء التضحية والجهاد
وحدهم بعد أن كانوا يحملونه مع غيرهم ، ولكنهم خالفوا
في تقدير الظروف ومقتضيات الحوادث ووقفوا دون رأيهم
مكافحين . ومن هنا عرفت عنهم الصلابة والشدة والعزيمة
والقوة ، وامتاز أديهم بهذه المعاني الجميلة الرائعة التي تبدو
دائما مع جلال الإيمان .
أدباء الخوارج :

وكان معظم الخوارج عربا صرحاء جلهم من البادية . وانضم إليهم
نفر من الموالي . وقد نبغ فيهم الكثير من الشعراء والخطباء عرفوا
فصاحة اللسان ونصاعة البيان . وقوة الجنان ، مع تخير اللفظ
وجودة المعنى وقوة السبك وبراعة الأسلوب وعمق التأثير وسلامة
المنطق والبديهة الحاضرة والجواب المسكت يشترك في ذلك رجالهم
ونسائهم على السواء .

ومن أشهر خطبائهم : أبو حمزة ، وقطري بن الفجاءة . ومن
فحول شعرائهم : عمران بن حطان ، والطرماح ، ومن أجل علمائهم
باللغة والأدب أبو عبيدة معمر بن المثنى مع أوسع أهل البصرة علما
بالنحو واللغة والأدب وأخبار العرب وأيامها . وإن الناظر في
خطبهم وأشعارهم ومناظرتهم وإجاباتهم ليس هذه الخصائص
ويدرك جليا هذه المميزات في أدب الخوارج .
أجوبة مسكته وبديهة حاضرة :

وقفت امرأة منهم بين يدي المجاج فتوعدها بقوله : «والله
لأحصدنكم حصد السلم» فقالت أنت تحصد والله يزرع فأين قوة

المخلوق من الخالق ؟ !

ووقف رجل منهم بين يدي عبد الملك بن مروان فدخل عليه بعض ولده يبكي فزجره فقال له الخارجي «دعه فإنه أرحب لشدقه وأجهر لصوته وأرق لقلبه وأجرى لعينه أن تدمع من خشية الله» فلم يشغله ما هو فيه من خوف القتل عن أن يعرض لمثل هذا الشأن بمثل هذا التقسيم البديع والعبارة الخالصة الطليّة .

وأتي عبد الملك بن مروان برجل منهم فدعاه إلى الرجوع عن مذهبه وألح عليه في ذلك فقال الخارجي لتغفك الأولى عن الثانية وقد قلت فسمعت فاسمع أقل ؛ قال له قل : فجعل ييسط له من قول الخوارج ويزين له من مذهبهم بلسان طلق وألفاظ بيّنة ومعان قريبة حتى قال عبد الملك «لقد كاد يوقع في خاطري أن الجنة خلقت لهم وأناي أولى بالجهاد منهم ثم رجعت إلى ما ثبت الله علي من الحجّة وقرر في قلبي من الحق» .

وكانت أم حكيم الخارجية تلقى الأبطال وتحمل على الرجال وتقارع الفوارس في حومة الوغى وهي ترتجز .
أحمل رأساً قد سئمت حمله وقد مللت دهنه وغسله
ألا فتى يحمل عني ثقله

وصف :

ولقد وصف أبو حمزة الخارجي أصحابه بهذه العبارات البليغة التي تقطر رقة وتفيض سلاسة وتغوص إلى أعماق النفوس فقال :
«شباب والله مكتهلون في شبابهم ، غضيضة عن الشر أعينهم ، جميلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء عبادة وأطلاح سهر ، ينظر الله إليهم في جوف الليل منيرة أصلاهم على أجزاء القرآن كلما مر أحدهم

بآية من ذكر الجنة بكى شوقا إليها ، وإذا مر بآية من ذكر النار
شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أدنيه موصول كلالهم بكلالهم ، كلال
الليل بكلال النهار ، قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم
وجباههم واستقلوا ذلك في جنب الله ، حتى إذا رأوا السهام قد
فوقت والرماح قد أشرعت والسيوف قد انتضيت ورعدت الكتيبة
بصواعق الموت وبرقت استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله ومضى
الشاب منهم قدما حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه ، وتحضبت
بالدماء محاسن وجهه ، فأسرعت إليه سباع الأرض وانحطت إليه
طير السماء فكم من عين في منقار طالما بكى صاحبها في جوف الليل
من خوف الله ، وكم من كف زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها
صاحبها بالسجود لله .

هموم المسلمين

من رسالة إلى الشيخ بيوض يقول عن ميزاب إن
صورة المجتمع الذي شهدته تقو وتماسكاً ،
صلاحاً وفتحاً ، رقة وبعد نظر ، من الصور التي
ستعيشني ما دمت واحداً من الجماعة الإسلامية
الكبرى التي تنظر إلى غد مشرق يحى فيه
المسلمون كما ولدوا إخوة يفضلون الجماعات
الأخرى ، ويتفاضلون فيما بينهم بمقياس واحد هو
التقوى

هموم المسلمين (1)

رسالة إلى الإمام الشيخ بيوض
بقلم : الدكتور شكري فيصل (رحمه الله)

السيد الأستاذ الجليل العالم العامل الشيخ بيوض إبراهيم حفظه
الله وأفاء عليه نعمة التوفيق السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .
وبعد فقد عدت إلى الجزائر العاصمة من الجزائر الواحات ممتلئ
النفس بالذي لقيت وشهدت وسمعت وأحسنت أن كل شيء حولي
يشيرني ويفيني وينمي كل عاطفة خير عندي ويبعث الومضة تلو
الومضة في ذهني ... ولم أكن خلال هذا الأسبوع في الحاضر وحده
ولكنني كنت أتأرجح هذا الترواح البعيد بين الماضي والحاضر
والمستقبل .

أن صورة المجتمع الذي شهدته تقي وتأسكا ، صلاحا وتفتحا ،
رقة وبعد نظر من الصور التي ستعايشني مادمت واحدا من الجماعة

(1) الدكتور شكري فيصل (رحمه الله) سوري من أعلام الفكر
الإسلامي المعاصر ، أديب من أساتذة الجيل . مشهور بمؤلفاته النقدية ،
والتراثية . درس في جامعات عربية كثيرة . توفي في خريف 1987 .

الإسلامية الكبرى التي تنظر إلى غد مشرق يحى فيه المسلمون
كما ولدوا إخوة يفضلون الجماعات الأخرى ويتفاضلون فيما
بينهم بمقياس واحد هو التقوى .

أن هذه الرسالة القصيرة لا تتسع للتعبير عما يملؤني ... فقد
عشت معكم وبينكم كما لو كنت واحدًا منكم أو كنتم بعضًا من دنيائي
العريضة الفاضلة التي أتطلع إليها ... وكانت الرعاية التي راعيتوني
بها نموذجًا للخلق الاسلامي الرفيع الذي يجد في السلم أخاه ، وكانت
الأحاديث التي أسمعتمونها نموذجًا للفكر الاسلامي المتطلع الذي
يريد أن يفتح على كل ما حوله ليستوعب كل ما حوله ...
وكانت هموم الحياة التي وجدت أنها تستبد بكم نموذجًا لهموم الحياة
الاسلامية التي تريد أن يكون لها في كل المجالات : زراعة وصناعة
وتجارة أوفى نصيب ... وكان القلق الذي يغشاكم وأنتم تنظرون حالة
المجتمع الاسلامي هو القلق المنتج الحصب الذي يتخذ من فساد الواقع
منطلق قوة لا منطلق بأس .

وأشهد لقد كان كل ذلك غذاء يمدني بالقوة ويسعفني بالأمل
ويفتح لي على طريق المستقبل أعرض النوافذ وإذا كان لمثل هذه
اللقاءات من فائدة فذلك حين تجاوز اللقاء إلى الصلة ، والأستماع إلى
الوعي ، والفكرة الواحدة إلى الفكرة المتكاملة ، والأفق المنفرد إلى
الأفق المشترك .

وذلك هو الذي كان عندي من أثر . من أكبر الأثر . وفي هذه
الأيام التي سعدت فيها بالاجتماع إليكم ... وذلك هو الذي يدفع
لي . وقد عدت ، أن أجلس فأكتب إليكم .

وكان من الحق أن أكتب إليكم من قبل شاكرًا ... ولكنني أحس

أن كلمات الشكر دون أن تستطيع الوفاء بالذي أحب أن أقول ...
فلأدع ذلك ليكون حديث القلب إلى القلب همسا من غير جهر
ومناجاة من غير تقييد ويبدو لي أني أستطيع أن أدير حديثي حول
نقاط أربع .

أن هذه النقاط تنبع من اعتقادنا جيعا بأن الإسلام
المعاصر - أعني إسلام المعاصرين - يعاني أزمت حادة منشؤها هذا
التطور الضخم الذي تعانیه الجماعة الإسلامية : وهذه الأفكار الكثيرة
الجديدة تداخلها حيناً وتفزوها حيناً وتفرض عليها في حين
ثالث ... وأن الإسلام والمسلمين مناهم في كثير من الممرات هدف
هجوم حاد لا يمكن أن ينال بعضهم وأن يعف عن بعض آخر ...
وأن الجماعات الصغرى لا تملك مها توت من براعة الذهن وشدة
التماسك وقوة المحافظة أن تبقى وحدها وبخاصة في هذه الفترات من
تاريخ العالم التي يطال فيها كل شيء كل شيء والتي تتخلل فيها
التأثيرات كل طبقة وتنفذ من كل المسامات وتركب الهواء والرياح
والأثير والفضاء إلى أعماق الدنيا .

والمسلمون جيعا أمة واحدة من دون الناس ... ولأنهم كذلك
فان أبرز ما يميزهم أن تكون حركتهم واحدة وأن تكون وجهتهم
واحدة على نحو ما هي قبلتهم واحدة كذلك ولذا يبدو وضروريا
أن يكون دفاعهم واجدا ضد هذه الهجمات المستشرية .

1 - نحو فكر اسلامي غني ممكن

والذي يهاجمون به الآن ليس الاستكبار كما في أيام مكة ولا
النفاق كما في أيام المدينة ولا الحرب كما كان شأن الصليبيين وإنما هو

إفساد العقيدة لا بالعقائد السابقة القديمة كما حدث في أيام العباسيين وإنما بالثقافة الجديدة التي تتصل بالحياة والغذاء والرفاهية وتلبس بالانسانية والتحرر ... وأعني - بإيجاز - التي تجمع بين المثل والواقع .

فكيف يستطيع المسلمون أن يثبتوا لهذا ؟

أن عقيدتنا لا تتزلزل في أننا نستطيع ذلك ... ولكننا من أجل أن نواجه هذه الأخطار الفكرية لا بد لنا من تفهمها أولا لتكون مواجتها بفكر مائل أو بفكر أغنى ... لا بد من أن تكون (أو يكون جماعة منا) على صلة بكل التيارات المعاصرة وأن تكون في ذات الوقت على صلة بكل ما في الاسلام من حقائق حتى تستطيع أن تنهض بهذه المهمة .

وأكثر المسلمين اليوم - والأسف يحزننا - لا يجمعون بين هذين : بين من يعرف الاسلام معرفة دقيقة وبين من يعرف الفكر المعاصر معرفة دقيقة ... وندرة نادرة أولئك الذين يستطيعون أن يكونوا «القوى الأمين» الذي أشار إليه القرآن الكريم .

أفليس من الضروري إذن أن تتفرغ جماعة من مفكرين لهذا ؟ ليس ذلك فرض عين نأثم جميعا في أهماله إلا أن ينقذنا من ينهض به ليرفع هذا الإثم ؟

هنالك محاولات فكرية كثيرة خلال نصف القرن الأخير ... ولكنها موزعة مشتتة ... هذا أولا ... والسلاح الفكري متجدد دائما وهذا ثانيا ... ثم ليس هو سلاح الأفكار المادية ولكن سلاح 'لكنية' التي تحاول بناء فكر جديد ... فلا بد إذن من أن ينفرد بعض المسلمين لهذا ما دام هذا الفكر لا يتسرب إلى مجتمعاتنا تسربا

وأنا مهاجها هجوًا .

هل نوفق اذن إلى : افراد جماعة من الثبان الناهين إلى الدراسات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية يعدون اعدادا سلاميًا متميزًا في الدراسة الثانوية وفي سنة بعدها أو سنتين يحملون على اتقان لغتين أجنبيتين من ثلاث (الانجليزية ، الفرنسية ، الروسية) ويبدأون مرحلة اللسانس في بلد عربي ثم مرحلة الدكتوراة في واحد من هذه البلاد ثم ينتظر ما يكون منهم من خير بأذن الله ؟

الفكر المعاصر ياسيدي ذلك هو الذي يجابه بفكر مثله ... ولعل ذلك أن يكون من ثمرات حركة الاصلاح التي تقومون عليها ومعهد الحياة الذي تريدون أن يكون أبنائوه للحياة .

2 - المشاركة في أعمال الفداء

المسلمون اليوم في فلسطين على أبواب كارثة أن هم تحاذلوا وعلى عتبة النصر أن هم اتحدوا وقد انتهى الرأي إلى عمل الجماعات لا إلى عمل الحكومات بعد سلسلة من التجارب المرة ومعنى ذلك أن الأمر انتهى إلى الجهاد المنظم ولا بد لنا من أن نعطي هذا الجهاد لونه لاسلامي . وإذا كانت الحكومات لأسباب واضحة أو خفية لا نستطيع أن تعمل باسم الاسلام - تقية أو الحاد - فأن من واجب المسلمين أن يعملوا باسم الاسلام وحده .

أن أثر ذلك في مستقبل حياتنا أثر شديد ... أن الأجيال المقبلة ستقول أن تحرير فلسطين تم باسم الدين وحينئذ يكون لهذا الدين مكانه في المجتمع الجديد أما إذا كان التحرير بهذه الأسماء الجديدة فأن

ذلك سيد ظله على المستقبل وقد يؤدي إلى طمس الهوية الحقيقية لهذا الجهاد .

من هنا أتمنى أن يفتح باب التطوع لهذا الغذاء في الجماعة في صفوف حركة التحرير حتى يكون للمتطوعين أثرهم فيما قبل المعركة وفي المعركة وفيما بعدها .

3 - التبشير الاسلامي في افريقية

موضوع الإسلام في افريقية ينوشك أن يكون أحد الأهداف الأساسية في السياسة العالمية ولست أفيض في ذلك وحسي أن أشير إلى أن الإسلام الأسود هو الذي يخيف الدوائر الأجنبية كلها علمانية ومدنية شرقية وغربية أوربية وأمريكية ، كاثوليكية وبروتستانتية ولذلك تبذل جهود لا حصر لها لمحاربته في أفريقية والسياسات الأخيرة في القارة - السودان الجنوبي وحركة الانفصال والتبشير الحبشة مع مليها ومع إرتيريا والصومال - السنغال وسنغور - بيافرا ونيجريا - مقتل الزعيم النيجري أحمد - وجه من وجوه الحرب مع الإسلام وأهله ومحاولة لحصر الإسلام في شمال الصحراء الكبرى مع محاربته في هذا الشمال .

ولذلك يذهب كثيرون إلى أن وجه المستقبل العالمي سيكون في أفريقية ومما يكون من صراع المسيحية والإسلام فيها أذ لا تزال هناك ملايين عشرة أو خمسة عشرة في وثنية لا بد أن تنتهي بعدها إلى دين

وحسبكم في تصوير قوة هذا الصراع أن تضطر الكنيسة لأول مرة في تاريخها إلى اباحة تعدد الزوجات في أفريقيا تيسيراً لمهامها

الأساسية .

فهل من الممكن أن تتخذ بعض الجهود في ذلك : نمد جماعة من الطلبة المؤمنين لهذا اعداداً (يمكن تفصيل الحديث فيه) وننذر أو تنذر نفسها لهذه المهمة التي لا يقدر أثرها وخطرها .

4 - التراث المحفوظ في وادي ميزاب

يكثر الحديث عن هذا التراث ويتوزع هنا وهناك وبعضه قيم كبير القيمة وبعضه لا قيمة كبيرة له .. ولا بد من الالتفات إليه : جمعا ثم دراسة ثم فهرسة ثم اختياراً لنشر ما ينشر منه . وقد يكون ترك ذلك للصدف مؤثراً في تأجيل الاستفادة منه وأعني كذلك أن يتفرغ له بعض من هم أهل له ، وهم كثر .. هذا يا سيدي بعض ملاحظات .. أنا جد واثق من أنكم قبل كل انسان آخر على ذكر منها ومعاناة لها ... انكم ما كنتم بحال في حاجة إلى من يتحد إليكم عنها . . . وإنما استجرت ذلك تعبيراً عن هذه المشاركة التي يحس بها المرء ، وعرفانا لرعايتكم واستجابة إلى الآية الكريمة التي تجعل من الذكرى فرضاً في قوله تعالى : فذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين . ولكن أكنتم من ذلك دائماً الا على ذكر ويقظة وتنبيه ! ؟ ..

أني أعرف أن سعة افقكم وامتداد نظرتكم تجعل هذا الحديث وكأنه لغو أو نافلة ... ولكني أحسست مع ذلك أنني مدفوع اليه على أنه تحية ومشاركة .

وحين لا يجد الانسان الخيل والمال يهديها ... ولا يجد مجال القول الذي استطاعه المتنبي في قوله
لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسمع النطق أن لم تسعد الحال

فإذا يفعل إلا أن يدعو لنفسه أن يهديه الله .
وأرجو بعد أن تتقبلوا مرة أخرى خالص شكري لكم وللأخوان
جميعاً : للذين احتفوا وللذين أطفوا وللذين تعبوا وللذين
استضافوا وللذين عرّفوا وعلموا ولا أشك في أني سأحتفظ بأطيب
الذكريات لكل الوجوه التي عرفت والأمكنة التي زرت .
وأول دعوانا أن يجمع الله كلمة المسلمين على الحق والخير والعمل
المشترك وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

شكري فيصل

الجزائر : الخميس 1389/1/23 هـ

م 1969/4/10

مسند الامام الربيع بن حبيب

... وما آثرت تخريج أحاديث المسند والشرح ،
ولا سيما ما رواه الشيخان إلا لتطمئن قلوب
إخواني أبناء السنة بأن مسند الربيع الذي بني عليه
المذهب الإباضي هو صحيح الأحاديث ، وأكثرها
مما جاء في الصحيحين ، وجابر بن زيد ممن
روى عنهم البخاري وغيره لكيلا يقع فيما وقع فيه
خصوم الأباضية أو من لم يعرف حقيقة مذهبهم
وعقيدتهم ...

مسند الامام الربيع بن حبيب (1)

بقلم : الشيخ عز الدين التنوخي

الحمد لله وله الفضل والمنّة، على أن هدانا للعمل بالكتاب والسنة ،
والصلاة والسلام على المبعوث من أنفس العرب رحمة للعالمين ورؤوفاً رحماً
بالمؤمنين ، وعلى آله وصحبه المجاهدين والفرّ الميامين .
وبعد فما جاء في فتح الباري⁽¹⁾ أن آثار النبي ﷺ لم تكن في عصر
الصحابة وكبار تبعهم مدونة في الجوامع ولا مرتبة لأمرين :
أحدهما : أنهم كانوا في ابتداء الحال قد نُهوا عن ذلك ، كما ثبت في
صحيح مسلم خشية أن يختلط بعض ذلك بالقرآن العظيم .
وثانيهما : لسعة حفظها وسيلان أذهانهم ، ولأن أكثرهم كانوا لا
يعرفون الكتابة ، ثم حدث في أواخر عصر التابعين تدوين الآثار وتبويب
الأخبار ، لما انتشر العلماء في الأمصار ، وكثر الابتداع من الروافض
ومنكري الأقدار ، فأول من جمع ذلك الربيع بن صبيح (- 160 هـ)
وسعيد بن أبي عروبة (- 156 هـ) وغيرهما ، وكانوا يصنفون كل باب على
حدة إلى أن قام كبار أهل الطبقة الثالثة فدونا الأحكام ، فصف الامام

(1) الشيخ عز الدين التنوخي (سوري) . . عضو المجلس العلمي السوري ،
من علماء الحديث البارزين .

(1) للحافظ ابن حجر ص 4 ، المطبعة الأميرية بالقاهرة 1301 هـ .

مالك (93 - 179 هـ) الموطأ ، وتوخى فيه القوي من حديث أهل الحجاز ومزجه بأقوال الصحابة وفتاوي التابعين ومن بعدهم ، وصف أبو محمد عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج (70 - 150 هـ) بككة ، وأبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي (88 - 157 هـ) بالشام ، وأبو عبد الله سُفيان بن سعيد الثوري (97 - 161 هـ) ، وأبو سلمة حماد بن سلمة بن دينار (- 167 هـ) بالبصرة ، ثم تلامح كثير من أهل عصرهم في النسخ على منوالهم ، إلى أن رأى بعض الأئمة أن يُفرد حديث النبي ﷺ خاصةً وذلك على رأس المسائتين ، فصنف عبيد الله بن موسى العيسى الكوفي مسنداً ، وصف مسدّد بن مسرهد (- 228 هـ) مسنداً ، وأسد بن موسى الأموي مسنداً (122 - 212 هـ) ، وصف نعم بن حماد الخزاعي مسنداً (- 228 هـ) .

صفاته : كان رحمه الله ضريباً قويّ الذاكرة والذكاء ، وكان شديد البقظة على تطورات قومه بعان ، فقد عمل كثيراً على إعادة الامامة إلى القطر العباني الذي قلما عرف الملكية قديماً إلا في ظروف شاذة كما وقع على عهد بني نبهان في عصر ابن بطوطة ، ولم يكن يكتف ميوله وآراءه في الامامة عن السلطان فيصل بن تركي سلطان عمان ، ولكنه لم يجد منه انقياداً الى إعلان الامامة بدسائس الانكليز الذين يتحينون الفرص للانقضاض على أقطار الخليج العربي ، ومطامعهم في جزيرة العرب ونقطها ومعادنها لا تحتاج الى تعريف .

وما زال هذا العالم العامل يعمل على بث الدعاية للامامة لا تأخذه في الله لومة لائم ولا يخشى في اعلان الامامة سطوة غاشم حتى بدت للعلماء المساعي البريطانية لحمل سلطان مسقط على الاعتراف بالحماية البريطانية ، فألس العلماء القيادة للنور السالمي شارح هذا المسند وأعلنوا الامامة

ببايعة الامام التقي العلامة سالم بن راشد الخروصي ، وبذلك نهض المترجم ببلاده وأقصى عنها أخطار الاستعمار ، وما في عمان اليوم من علماء إلا وهم تلاميذه ، ولا فيها من روح قومية مقاومة للمستعمرين الا منه ، فهو مضرّم نارها وملهب أوارها . وان الانسان ليعجب كيف استطاع أن يؤلف تلك المكتبة في عمره القصير وهو لم يبلغ الخمسين ، فهو في قصر عمره وكثرة كتبه نظير شيخنا الجمال القاسمي بدمشق رحمهما الله ، ومن تلك الكتب :

- (1) « تحفة الأعيان في تاريخ عمان » جزءان طبع أولهما بمصر .
- (2) « الحجج المنعقة في أحكام صلاة الجمعة » طبع بهامش شرح طلعة الشمس في أصول الفقه .
- (3) « شرح المسند الصحيح » للامام الربيع بن حبيب الفراهيدي ، من أئمة القرن الثاني ، في أربعة أجزاء طبع الأول والثاني منها بمطبعة (الازهار) البارونية ، والثالث بالمطبعة العمومية بدمشق في هذه السنة .
- (4) « سواطع البرهان » رسالة في تطورات العصر في اللباس جواب لسؤال بعض أهل زنجبار .

- (5) « مدارج الكمال » أرجوزة في الفروع الفقهية تنيف على ألفي بيت ، وهو نظم مختصر الخصال للامام أبي اسحق الحضرمي . مطبوعة .
- (6) « معارج الآمال » شرح لهذه الأرجوزة ، وهي تنبئ عن غزارة علمه وروسخه في علم الشريعة قيل أنه يبلغ ستة عشر جزءاً .
- (7) « غاية المراد » أحد متون أصول الكلام .

- (8) « مشارق أنوار العقول » شرح أرجوزته في أصول الدين شرحها شرحاً وافياً عدّ به من أحسن كتب الأصول تحقيقاً وتحريراً وتنسيقاً طبع بمصر .

(9) « أنوار العقول » أرجوزة في أصول الدين تزيد على 300 بيت .
(10) « بهجة الأنوار » شرح (أنوار العقول) طبع بهامش طلعة الشمس .
(11) « طلعة الشمس » الفه في أصول الفقه ، من أجل متون هذا الفن وأكثرها نفعا .

(12) شرح طلعة الشمس في أصول الفقه جدير بأن يعد من أنفس كتب الأصول .

(13) « جوهر النظام » أرجوزة في الأديان والأحكام الشرعية والحكم ، وهي بضعة عشر ألف بيت . مطبوعة :

(14) « بلوغ الأمل » أرجوزة في أحكام الجمل الثلاث في الاعراب ، نقيصة جدا .

(15) « الفتاوى العمانية » في سبعة أجزاء منها كتاب حل المشكلات
(16) رسالة تلقين الصبيان لمدارس عمان ، وقد طبعت بدمشق بالمطبعة العمومية هذه السنة باشرافنا ، وهي رسالة مفيدة للصبيان والرجال معاً .
(17) « المنهل الصافي في العروض والقوافي » أرجوزة تزيد على 300 بيت .

هذا حكم (المتصل) من أخبار هذا السند ، و (المنقطع) بإرسال أو بلاغ في حكم الصحيح لثبوت وصله من طرق أخرى ، وأما (المرسل) فقد جاء في التدريب (67) عن ابن جرير قال :
« أجمع التابعون بأسرهم على قبول (المرسل) ولم يأت عنهم إنكاره ولا عن أحد من الأئمة بعدمه إلى رأس المائتين ، قال ابن عبد البر : كأنه يعني أن الشافعي أول من رده ، وقال السخاوي في فتح المغيث قال أبو داود في رسالته : أما المراسيل فقد كان أكثر العلماء يحتجون بها فيما مضى مثل سفيان الثوري ومالك والأوزاعي حتى جاء الشافعي فتكلم في ذلك وتابعه

أحد وغيره .

وقلّ من المشتغلين بالحديث في ديارنا الشامية وفي مصر والعراق وغيرها من له معرفة برجال هذا المسند الثلاثة ، ولذا يحسن بنا أن نعرّفهم ولو بإيجاز ، فأول رجال السند هو أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي الذي توفي في ولاية أبي جعفر المنصور (95 - 158 هـ) ، وقد أدرك من أدركه جابر بن زيد ، فروايته عن جابر رواية تابعي عن تابعي ، وقد روى جابر أيضاً عن جابر بن عبد الله وأنس بن مالك وأبي هريرة وابن عباس وأبي سعيد الخدري وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، وروايته هذه عنهم موجود بعضها في هذا المسند الصحيح ، وهي رواية تابعي عن صحابي .

شيوخه : أخذ أبو عبيدة العلم عن لقيه من الصحابة وعن الجابرين : جابر بن عبد الله وجابر بن زيد ، وعن صحرار العبيدي وجعفر بن السماك وغيرهم .

تلاميذه : وحمل العلم عن أبي عبيدة خلق كثير منهم : الربيع بن حبيب الفراهيدي صاحب هذا المسند ، ومنهم (حملة العلم الى المغرب) وهم أبو الخطاب المعافري وعبد الرحمن بن رستم وعاصم السدراني وإسماعيل بن درار الغدامسي وأبو داود القبلي النفزاوي ، وكان الامام أبو الخطاب المعافري قد جاء من الين فرافق الأربعة من أهل المغرب فخرج معهم الى بلادهم فنصبوه عليهم بأمر شيخهم أبي عبيدة ، وبأمره نصب الامام عبد الله بن يحيى الكندي في أرض الين ، وجمعت إمارته الين والحجاز ، وأقام حملة العلم عنده خمس سنين فلما أرادوا الوداع سأله إسماعيل ابن درار عن ثلاث مائة مسألة من مسائل الأحكام فقال له أبو عبيدة : « أتريد أن تكون

قاضياً يا ابن درار ؟ » قال : « أَرَأَيْتَ إِنْ ابْتَلَيْتُ بِذَلِكَ ؟ » .
 واليك ما يقوله الشارع المعتدل المنصف في مقدمة كتابه تحفة
 الأعيان⁽³⁾ : « وندعو الى كتاب الله ومعرفة الحق وموالاته أهله ،
 فمن عرف منهم الحق وأقرّ به توليناه وحرّمنا دمه ، ومن أنكر
 حق الله منهم واستحبّ العمى على الهدى وفارق المسلمين
 وعاندهم فارقناه وقاتلناه حتى يفيء الى أمر الله أو يهلك على
 ضلالتة من غير ان ننزله منازل عبدة الأوثان ، فلا نستحلّ
 سبائهم ولا قتل ذراريهم ولا غنيمة أموالهم ولا قطع الميراث
 منهم (كغلاة الخوارج) ، ولا نرى الفتك بقومنا ولا قتلهم في
 السرّ ، وإن كانوا ضلالاً ، لأن الله لم يأمر به في كتابه ، ولم
 يفعله أحد من المسلمين ممن كان بمكة بأحد من المشركين ، فكيف
 نفعله نحن بأهل القبلة ، ونرى أن مناكحة قومنا وموارثتهم لا
 تحرم علينا ما داموا يستقبلون قبلتنا ، ولا نرى أن نقذف
 أحداً ممن يستقبل قبلتنا بما لم نعلم انه فعله خلافاً (للخوارج !)
 الذين يستحلون قذف من يعلمون انه بريء من الزنا من قومهم ، وهم
 بذلك مظلون » اهـ .

فالاباضية اليوم بعُمان والمغرب من بقايا الخوارج المعتدلين
 والمتمسكين بالكتاب والسنة ، وقال النور السالمي ايضاً : « ليس
 من رأينا بحمد الله الغلو في ديننا ولا الغشم في أمرنا ولا التعدي
 على من فارقنا .. الله ربنا ومحمد نبينا والقرآن إمامنا والسنة
 طريقتنا وبيت الله الحرام قبلتنا والاسلام ديننا ! » ولذلك

(3) مقدمة « تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان » .

يحرم على المسلم اتهام أخيه المسلم في دينه بعد مثل هذا الاعتراف ، فيكون من المتألمين الذين يسارعون في تكفير المسلمين وهم الذين عناهم النبي ﷺ بقوله : « ويلّ للمتألمين من أمتي » أي الذين يحكمون على الله بقولهم فلان في الجنة وفلان في النار .

وإذا اطلع المنصف على هذا الشرح وجد الشارح واسع الاطلاع وألفى شرحه واضحاً مبيناً وتعابيره صحيحة فصيحة ، أسلوبها المساواة فلا هي مسهية مملّة ولا مفرطة الایجاز مخلة ، وأما أبحاثه فيها فانها تدل على اعتدال في التحقيق وبعد عن التعصب ، فكثيراً ما ينقل عن العلماء المخالفين : كالحنفية والشافعية والمالكية والحنابلة ، ويستشهد بأحاديث الشيخين وأئمة الحديث كأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والدارقطني والطبراني والبيهقي وغيرهم من أهل السنة والجماعة ، مما يدل على أن الإباضية في المشرق والمغرب مذهب قريب من مذاهب السنة ، والناظر في شرح النور السامي عالم عان يمتليء طمأنينة بما ذكرته ، وقاما رأينا من رجال المذاهب غير السنية من يستشهد برجال الحديث والفقهاء من أهل السنة إلا استشهاد نقد وردّ ، وما آثرت تخريج أحاديث المسند والشرح ، ولا سيما ما رواه الشيخان إلا لتطمئن قلوب اخواني أبناء السنة بأن مسند الربيع الذي بني عليه المذهب الاباضي هو صحيح الأحاديث ، وأكثرها مما جاء في الصحيحين ، وجابر بن زيد ممن روى عنهم البخاري وغيره لكيلا يقع فيما وقع فيه خصوم الاباضية أو من لم يعرف حقيقة مذهبهم وعقيدتهم فيظنهم من الخوارج الغلاة كالأزارقة والنجدية والصُفْرية المانعين لموارثة

ومناكحة مخالفهم .

ومن أعلم أهل السنة بالاباضية وأعظم من كتب عن الخوارج الامام
البرّد في كتابه الكامل فقد قال ما نصه : « قول ابن إياض أقرب الأقاويل
الى السنة » ، وقال ابن حزم : « أسوأ الخوارج حالاً الغلاة وأقربهم إلى قول
اهل الحق الأباضية » ، وابن إياض هو عبد الله بن إياض المري التيمي الذي
عاصر معاوية وعده الشاخي في السير في التابعين ، وكان من اتباع الامام
جابر بن زيد مؤسس المذهب الاباضي ولو نسب المذهب الى جابر بن زيد
تلميذ ابن عباس لكان في رأبي أصح علماً وأصدق نسباً .

الثلاثيات : وقد ذكر أئمة الحديث أن رتب الصحيح تتفاوت
الأوصاف المقتضية للتصحيح ، وأن من المرتبة العليا ما أطلق عليه بعض
رجال الحديث أنه أصح الأسانيد الثلاثة كسند الزهري عن سالم بن عبد
الله بن عمر عن أبيه ، وسند ابراهيم النخعي عن علقمة عن ابن مسعود ،
وسند مالك عن نافع عن ابن عمر ، وهو قول البخاري ، لأن هذه الأسانيد
قصيرة السند وقريبة الاتصال بالينوع الحمدي ، واشتهر رجالها بقوة
الحفظ والضبط وكال الصدق والصيانة والأمانة ، وذهب الامام أبو منصور
التيمي إلى أن أجّل الرواة عن الامام مالك بن أنس هو الشافعي ، فأجلّ
الرواة على ذلك ما رواه الامام أحمد بن حنبل عن الشافعي عن مالك
ويسمى هذا السند : سلسلة الذهب .

ويشبه هذه السلاسل الذهبية سلسلة مسند الربيع بن
حبيب وثلاثياته أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس ،
ورجال هذه السلسلة الربيعية من أوثق الرجال وأحفظهم
وأصدقهم لم يشب أحاديثها شائبة إنكار ولا إرسال ولا انقطاع
وإعصال ، لأن الثلاثيات بأجمعها موصولة باتصال أسنادها ولم

يسقط من أسانيدھا الثلاثية أحد ، و (المعضّل) هو ما سقط من إسناده اثنان فأكثر بشرط التوالي كقول مالك : قال رسول الله ﷺ وقول الشافعي : قال ابن عمر ، وقد يورد على قولنا هذا أن في مسند الربيع البلاغ والسماع مما يجعل الحديث مرسلًا ، ويجب على هذا القول أن رجال هذا المسند إذا نقلوا عن غير مشافهة بينوا ذلك بقولهم : بلغني أو بلغنا ، أو سمعت عن فلان أو نحو ذلك مما يبعد بالمسند عن التدليس ، فهم رحمهم الله أجل وأتقى من إن يوهوا الناس السماع وليسوا بسامعين ، وبذلك يظهر أن عظمة هذا السند مقطوع باتصالها ، لأن أبا عبيدة أخذ عن جابر وجابر أخذ عن الصحابة مباشرة ، حتى قيل : ان أبا عبيدة أدرك من أدركه جابر من الصحابة .

وأما جابر بن زيد الجوفي⁽¹⁾ الأزدي أبو الشعثاء (93 هـ) أصل المذهب الإباضي في عمان والمغرب⁽²⁾ وصاحب عبد الله ابن عباس فقد كان أشهر من صحبه وقرأ عليه ، وذكر أبو طالب المكي في كتابه (قوت القلوب) أن ابن عباس قال : « اسألوا

(1) الجوفي نسبة الى ناحية بعمان ، فان أصله من فرق ، وهي من أعمال نزوى بالقرب منها ، وكان من اليحمّد ، رحل في طلب العلم وسكن البصرة فنب إليها .
(2) وهو قريب من مذاهب أهل السنة لاعتماده في عقائده وعباداته ومعاملاته على الكتاب والسنة كما يراه في هذا الشرح المنصف الذي جمع ثنات الملمين وكلمة العرب ، وقد شرحت ذلك في ترجمة الامام ابن دريد في مجلة (المجمع العلمي العربي) بدمشق في الجزء الأول من المجلد الثامن والثلاثين سنة 1382 هـ .
= 1963 م .

جابر بن زيد فلو سأله أهل المشرق والمغرب لوسعهم علمه » ،
وقال إياس بن معاوية : « رأيت البصرة وما فيها مفتٍ غير
جابر بن زيد ، وقال الحصين : « لما مات جابر بن زيد وبلغ
موته أنس بن مالك قال : مات أعلم من على ظهر الأرض » ،
ولما مات جابر بن زيد ودفن قال قتادة : « أدنوني من قبره »
فأدنوه فقال : « اليوم مات عالم العرب ! » .

وعن ابن عباس قال : « عجباً لأهل العراق كيف يحتاجون
إلينا وعندهم جابر ابن زيد ! لو قصدوا نحوه لوسعهم علمه » .
شيوخه وتلاميذه الذين حمل عنهم العلم وحملوه عنه : أولهم
وأخصهم به عبد الله ابن عباس فقد أكثر من الحمل عنه ، ومعاوية وعبد الله
بن عمر ، ومن أخذ عنه قتادة وعمر بن دينار وأيوب وخلق .

وإذا تأمل الانسان روايات هذا المسند وجده يروي عن كثير من
الصحابة ، وإذا كان عدد من لقيهم من أهل بدر بلغ سبعين رجلاً فما ظنك
بن لقيهم جابر بن زيد من سائر الصحابة ، وأشهر أصحابه الراوين عنه
أبو عبيدة ، ومنهم ضام بن السائب وأبو نوح وحيّان الأعرج وكلهم من
الفقهاء المجتهدين ، وناهيك قوله : أدركت سبعين رجلاً من أهل بدر
فحوت ما بين أظهرهم إلا البحر ! (ابن عباس) .

شرح المسند : أما شارح هذا المسند فن الحق أن نلّم من ترجمته بما
يصور حقيقته ويبيّن منزلته بين العلماء المحققين فهو الشيخ نور الدين
أبو محمد عبد الله ابن حميد بن سلّوم بن عبيد بن خلفان بن
حميس السالمي الضبيّ (1286 - 1332) انتهت اليه رئاسة العلم
بمَنّان ، وظهر ذلك في تأليفه الجُمّة في مختلف الفنون الشرعية
والعربية مع التحقيق في مسائلها والاجادة في تأليف كتبها

ورسائلها .

ومن مزايا هذه الثلاثيات أو السلاسل الذهبية سهولة حفظها ، وحافظ المسند الثلاثي الرجال إذا روى حديثاً من أحاديثه صدره بسنده الثلاثي الذي لا يختلف في جميع أبوابه ، وحفظ الأحاديث الثلاثية أسير على المستظهر من حفظ سلاسل طويلة كثيرة الحلقات والرجال ، ولأنه يسهل على حافظ الثلاثيات معرفة رجالها لقلتهم والتثبت من أوصافهم بالحفظ والصدق والأمانة أكثر مما يعرفه عن رجال سلسلة عديدة الحلقات قد يوجد بينهم من لا يطمئن القلب بصدقه وديانته مما يضعف الحديث ويجعله غير مقبول .

ولما يرايا هذه الثلاثيات اهتم كثير من أئمة الحديث بتأليف الثلاثيات نذكر منها :

ثلاثيات الامام أحمد بن حنبل المطبوعة أخيراً بدمشق (1380) وشرحها في جزأين الامام محمد السفاريني ، وعدد ثلاثياته خمسة وستون ومائة حديث .

وثلاثيات البخاري وهي في صحيحه اثنان وعشرون حديثاً غالبها عن مكي ابن ابراهيم ممن حدث عن التابعين ، وهم في الطبقة الاولى من شيوخه مثل محمد ابن عبد الله الأنصاري وأبي عاصم النبيل وأبي نعم وخلاّد بن يحيى وعلي بن عباس .

وثلاثيات الدارمي وهي خمسة عشر حديثاً وقعت في مسنده بسنده .
- وثلاثيات الشيخ أبي اسحق ابراهيم بن محمد بن محمود الناجي وغيرهم . ونضيف اليوم اليها :

ثلاثيات الربيع بن حبيب الأزدي ، وأحاديثها في مسنده من أصحها رواية وأعلاها سنداً ، ورجال سلسلته الثلاثية

الحلقات هم : أبو عبيدة التيمي وجابر بن زيد الأزدي والبحر عبد الله بن عباس شيخ جابر وغيره من الصحابة ، وهم بأجمعهم مشهورون بالحفظ والضبط والأمانة والصيانة ، وهذا السند لا يختلف في جميع أبواب المسند كما يختلف في مائر كتب الثلاثيات .

ثم اقتفى الأئمة بعد ذلك أثرهم فقل إمام من الحفاظ إلا وصف حديثه على المسانيد كالامام أحمد بن حنبل (164 - 241) واسحق بن راهويه (161 - 238) وعثمان بن شيبه وغيرهم من النبلاء ، ولما رأى البخاري هذه التصانيف ورواها وجدها جامعة للصحيح والحسن ، أو لكثير منها يشمله التضعيف فحرك همته لذلك ما سمعه من أستاذه اسحق بن راهويه حيث قال لمن عنده ، والبخاري فيهم : « لو جمعتم كتاباً مختصراً لصحيح سنة رسول الله ﷺ ! » قال البخاري : « فوق ذلك في قلبي ، فأخذت في جمع الجامع الصحيح » .

وقال السيوطي : وأما ابتداء تدوين الحديث فانه وقع على رأس المائة في خلافة عمر بن عبد العزيز .

ثم ذكر الحافظ ابن حجر في فتحه : أن أول من دَوّن الحديث ابن شهاب (الزهري) بأمر عمر بن عبد العزيز كما رواه أبو نعيم من طريق محمد بن الحسن عن مالك ، ومَرَّبنا الآن أن أول من جمع الآثار وبُوب الأخبار هو الربيع بن صبيح وسعيد بن أبي عروبة ، ولم يذكر الربيع بن حبيب الفراهيدي الأزدي ولا مبران المدودي البصري ، والربيع بن حبيب صاحب هذا المسند من ثقات التابعين ، فقد أخذ كثيراً عن أبي عبيدة التيمي كما أدرك أبا الشعثاء جابر بن زيد والربيع شاب ، وجابر بن زيد من أشهر تلاميذ الجبر البحر عبد الله بن عباس ، ومع أنا لم نعثر على

تاريخ حياته فانا تقدّر أنه بدأ بجمع مسنده في صدر المائة الثانية ، وأنه أطلع شيخه أبا عبيدة على مسنده هذا المبارك .

ومن بين الطالغ على الحديث أن يكون الربيعان ، الربيع بن صبيح والربيع ابن حبيب في طليعة ركب الجامعين للحديث والمصنّين فيه ، ومن الأسف أنا لا ندري شيئاً عن مصير مسند ابن صبيح ، وعسى أن يهتم بذلك الباحثون عن نفائس المخطوطات ، ومن لطف الباري أن أبقى لنا مسند الربيع بن حبيب ، ثم من نعمته عليّ أن وفقني لاعادة نشره مع شرح علامة عمان عبد الله بن حيد السالمي ، ولما يطلع على المسند وشرحه من علماء مصر والشام والعراق إلا قليل .

ويُفهم من شرح هذا المسند أن الشارح من المتسكين بالحديث الصحيح وأرباب العقل الراجح والمعظمين للرسول ﷺ وأقواله والمهتدين بسنته وأفعاله ، فهو في شرحه لهذا المسند يمحّص أقوال العلماء ويختار على أقوال أهل المذهب ما صحّ من حديث الرسول ﷺ ، فليس هو ممن يرى (العمل على الفقه لا على الحديث) قال شارح « الصراط المستقيم » : « اذا وجد تابعُ المجتهد حديثاً صحيحاً مخالفاً لمذهبه هل له أن يعمل به ويترك مذهبه ؟ فيه اختلاف ، فعند المتقدمين له ذلك ، قالوا : لأن المتبوع والمقتدي به هو النبي ﷺ ومن سواه فهو تابع له ، فيعد أن علّم وصحّ قوله ﷺ فالمتابعة لغيره غير معقولة » . قلت : ولذلك لا يجوز التعصب للمذاهب تعصباً يُشتهر به بحديث الرسول ﷺ فان ذلك من الفسق والبعد من الدين والخروج على سيرة الصحابة والتابعين ، ومن هؤلاء المتعصبين الجامدين - كما يقول بعض الأئمة - من إذا مرّ عليهم حديث يوافق قول من قلّدوه انبسطوا ، وإذا مرّ عليهم حديث يخالف قوله أو يوافق مذهب غيره ربما انقبضوا ولم يسموا قول الله تعالى : (فلا وربك

لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) .

هذا ، وما كان أهل عمان أقرب فرق الخوارج الى أهل السنة إلا لأن مذهبهم كما أطلعت عليه مبني على السنة وتقديم العمل على الحديث لا على الفقه والمذهب ، عملاً بما جرى عليه إمامهم جابر بن زيد الذي عمل بنصيحة شيخه عبد الله بن عمر الذي روى عنه : فقد جاء في « الحجة البالغة » ان ابن عمر رضي الله عنه قال لجابر بن زيد : « إنك من فقهاء البصرة فلا تُفتِ إلا بقرآن ناطقٍ أو سنة ماضية ، فانك إن فعلتَ غير ذلك هلكت وأهلك » . ولذلك نعتقد ونقول : إن المعقول ومن القلب المقبول أن لا نهتدي إلا بقوله تعالى : (فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول) .

عز الدين التنوخي

الإباضية مذهب وسلوك

في الحقيقة إن الإباضية قد قصدت منذ نشأتها إلى
تحرير الإرادة الإسلامية والفكر الإسلامي من
التمزع والتفرع ، والتفسخ والتشرخ في شؤون
الدنيا وفي أمور الدين ، وفي الوقت نفسه تكون
قد قادت المسلمين إلى الهدف الجماعي الواحد
ودفعت بهم إلى الطريق الصحيح الرحب . . .

الاباضية مذهب وسلوك (1)

بقلم : الشيخ السيد عبد الحافظ عبد ربه

﴿ربنا عليك توكلنا واليك انبنا واليك المصير﴾ .

ان دراسة الاباضية في عمومها وخصوصها ترينا الناذج الرائعة الحية من القضايا الاسلامية ، والمفاهيم العقيدية ، والتشريع الالهي في شتى مجالات الكون ، وفوق خريطة العالم ، وعلى مستوى الانسانية كلها ، بما تنصلح به الدنيا ويستقيم معه الواقع ، وتتضح عنده العقيدة ، ويثرى فائضه رصيد البشرية ويتراءى حصاده زاهيا رايبا في أجواء العقيدة ، وآفاق الدنيا ، ويبدأ من لدنه مشوار التاريخ ، وتنطلق من محوره حركات الحياة في ايقاع متسق منظوم ، وتوازن شيق منغوم ، ضرورة ان الاباضية على الحقيقة رمز للسلوك الاسلامي المذهب الذي يصح ان يقاس عليه سلوك المسلمين ، ويحتذى به أي مسلم أو عربي عبر الأمة الاسلامية والعربية ، ومن خلال الالف والسبعائة مليون ممن يقولون « لا اله إلا الله محمد رسول الله » ومن ينطقون العربية ويلهجون بلغة القرآن الكريم .

لقد امتد نسب الاباضية الى النبي ﷺ ، واستقى معينه من كبار

(1) الشيخ السيد عبد الحافظ عبد ربه (مصري) ت : 1990 من علماء الأزهر

المرموقين .

الصحابة ، وبالذات من خبر هذه الأمة وعالمها عبد الله ابن عباس الذي حمله في صدره وبشر به في أقضيته وفي فتياه ، والذي أجمع عليه وتزاحم في تشريعاته وأصوله وفقهه ومنهجه علماء الاسلام واساطينه من أمثال جابر بن زيد ، وأبي عبيدة مسلم التيمي وعبد الله بن اباض ومرداس بن حدير ، والربيع بن حبيب الفراهيدي ومحبوب بن الرحيل ، وطالب الحق أبي يحيى عبد الله بن يحيى ، وأبي حمزة المختار بن عوف ، وبلج بن عقبة الازدي ، وضام بن السائب العماني ، وغيرهم كثير وكثير من خيار هذه الأمة ، الذين قال الله تعالى فيهم وفي أمثالهم : (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) ..

وهكذا بدأت هوية هذا المذهب وملاحه ، وذاتيته وشخصيته تتكامل كأننا سويا في أعماق الدنيا ، وفي اغوار الحقيقة ، وفي وجدان الحياة منذ ان بدأ الاسلام أول خطواته فيها ، وأنشد وضع قدمه هناك على الطريق القاصد ، وفوق هذه الأرض المباركة التي تنزل فيها وحى الله على رسول الله محمد صلوات الله وسلامه عليه .

ان اصالة المذهب الاباضي وصدارته لم تأت من فراغ ولم تنشأ هكذا اعتباطا ، بل هيأ القدر الطريق أمام هذا المذهب ، وأطاب له المناخ ، وأمشى في مسيرته النجاحات المواتية ، وشده في تقنيته وفقهه الى المتاحات الواعدة المستقبلية ، واعدّه اعدادا كاملا معنيا مرعيا كي يتمكن من قطع الشوط ، واكمل المشوار وتطويق آماده ، واقتحام احجائه وابعاده ، واداء رسالة اصلاحية ، استجنت واختبأت في ضميره ووجدانه ، وظل يحملها حقبا متطاولة من عمر الحياة ، حتى اذا شاء الله لها الظهور والولادة انفرجت عنها مشاعره واجتهاداته ، وجاءت الى العالم

في أسلوب من الوعي الجديد ، وصيغة واضحة وضاعة على يد عمالقة الفقه واساتذة التشريع وعلماء الاصلاح من رجال الاباضية الشوامخ الذين نذروا نفوسهم لله وباعوها - في سبيل ترشيد الانسانية - بيع السماح . أولئك الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه .

فهل يمكنني حينئذ أن أقول : ان المذهب الاباضي أيقظ حراس الاسلام والعروبة عبر آلاف السنين ، وعلى مدى الدهور والعصور بما فعله - وما سيفعله - نهوضا بالاسلام ومن أجل قضايا المسلمين ؟ .

في الحقيقة إن الاباضية قد قصدت منذ نشأتها الى تحرير الارادة الاسلامية والفكر الاسلامي من التمزع والتفرع ، والتفسخ والتشرخ في شئون الدنيا وفي أمور الدين ، وفي الوقت نفسه تكون قد قادت المسلمين الى المهدف الجماعي الواحد ودفعت بهم الى الطريق الصحيح اللاحب ، ومشت معهم في زحف مقدس ، وصف منتظم راكض الى حيث تكون الوحدة الاسلامية ، والفرقة الواحدة الناجية التي عناها الله في قوله لرسوله ﷺ : (قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) والتي ارتضاها النبي صلوات الله وسلامه عليه ، وأخبر عنها حين قال : « افترقت المجوس على سبعين فرقة ، وافترقت اليهود على احدى وسبعين فرقة ، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة ، كلهم في النار الا واحدة » ..

ان الاسلام قد مني - منذ سنواته الأولى ، وخطواته الطرية ، أو بدءا من تعامله مع الحياة ، في عهد الخليفة الثالث - بالكثير جدا من الاضطرابات والفتن والكبير الخطير من البلايا والمحن حين تفرق المسلمون مزعا وشيعا ، وتنافروا اقساما وارقاما ، وكادت شأفتهم ان تنقضى ،

وعصام أن تنكسر وأمرهم أن ينتهي وينفض .. وزاد الطين بلة والقلب أوجاعا وعلّة ، هذا الهجوم الزاحف والطوفان الخاطف الراجف ، والموج الهائل المتلاطم ، الذي جاء في معية هذا الفكر الغريب الوافد على البيئة الاسلامية والمتمثل في الفلسفة اليونانية والوثنيات الاغريقية ، والشطحات المجوسية الفارسية ، والمتاهات الزرادشتية والترهات المانوية ، والبوذية ، والبراهمية .

الى غير ذلك من الديانات الشرقية الوضعية ، والاباطيل والاضاليل التي نفثها الشيطان في ارواح أصحاب هذه الملل والنحل ، من احلاسه واتباعه وسدنته وأشياعه والمنفذين أمره والمتنهجين نهجه ، والسائرين على حدهاء وخطاه .. هذا الى جانب ما أثقل الأمر وقسم الظهر ، من الفرق الاسلامية العديدة ، والطواوير الطويلة المديدة ، التي أضعفت كيان العقيدة وأثقلت كاهل الدين ، بما ابتدع واتبع وبما احدثوه بينهم وتنازعوا عليه ، واختصموا فيه ، وتساقطوا عنده ضحايا وصرعى من مثل الاعتزال ، والمغالاة ، والحجأة واللامبالاة والتشيع والانحياز المتجسم المتضخم في المعتزلة وغلاة الخوارج والصفاتية والحوشية والمشبهة ، والقدرية والشيعة مع ما انشطرت اليه هذه الفرق والطواوير من فروع وتشكيلات ، ومذاهب ومناحي واتجاهات وأيضاً مع ما اندرج ضمن هذه اللافتات وانضوى تحت لوائها من تسميات واسماء ومسميات بما تفوق العد وتجاوز الثلاث والسبعين فرقة بكثير وكثير .. الأمر الذي يبهر العادين ويعجز الحاسبين . ومن خلال كل هذه التراكمات والتناقضات . والاعداد والكميات وما يدور بينها ، ويحدث في صفوفها ، من نزاعات وخلافات وصدامات وانقسامات .. نرى تلك « الفرقة الناجية » وقد خرجت وحدها من وسط هذه الممعة ، وجسم تلك المعركة وهي تلوح باغصان الزيتون ، وفروع

الورد ، أو قد هيأتها الأباضية وادخرتها لمثل هذا اليوم ، ولتقوم - قادرة ماهرة - بهذا الدور البطولي البارع الذي يحفظ على المسلمين وحدتهم ويبقى على كيانهم ، ويصون لهم العقيدة والدين ...

وبعد هذا كله هل يمكنني أن أواجه - أو أجابه - المتشككين والمتشائمين من دعاة التفرقة المذهبية ، وأحلاس المهوى المغرض والمتشجنين ، والمتعصبين ، وغلاة العقيدة والخارجين على الجماعة ، والمتسوقين في بضاعة الدين والمترهلين عند بعض الفتاوى ، والجامدين على بعض الآراء من ساهرة القيل والقال وعملاء التبعية والتزق وكهان التفرق والتفسيق وأصحاب هذا الفكر الجامد المعاند ؟

هل يمكنني أن أواجه - أو أجابه - أو أقول لكل هؤلاء وأولئك ، تلك هي انظف بقاع الدنيا ، وأطهرها وقد اعتنقت ذلك المذهب الاباضي الذي بعد بها - وبالعالم الاسلامي كله - عن هذه المتاهات ، وتلك الشقشقات والشنشات التي دوخت البشر واتعبت الناس ، وأدت كاهل الكون ، وأثقلت عاتق الايام وزلزلت أوزعزعت كيان الوجود ؟ .

تلك هي الجزائر وتونس وليبيا والمملكة المغربية وحضرموت وعمان ودول الخليج وزنجبار وشمال وشرق افريقيا .. وعموما بعض الجيوب المصرية وبعض أطراف السعودية وقد تمذهبت كلها بمذهب « أهل الاستقامة » واعتقدته منهجا وطريقا ، وتفاعلت معه سبيلا وسلوكا ..

تلك هي تطلعات الاباضية في الماضي والحاضر والمستقبل اصالة وعراقة ، وأملا وعلا ، وبناء وطموحات ، ونهضة ويقظة وامانة ونية ، ووثبة وهمة ، وذودا عن العروبة ، ودفعاً عن الاسلام وحماية لقضايا

الشعوب والامم ووقوفاً صادقاً صامداً وانعطافاً منحازاً قاصداً مع كل مضطهد مغلوب أو عان مكروب أو يائس بائس ، يطحنه الذل ، ويمضغه الظلم وتسحقه الحاجة ويرغمه الفقر ويقهره الهوان . ولا تفتأ التناقضات تلهب ظهره وتثقل أضربه وتدق فوق رأسه بمطارق المعسكرات الدولية أو الانتماءات الحزبية أو التوقعات الشعبية أو الملاهي الشيطانية ، الصبائية ، كما نرى ونشاهد ونسمع ونقرأ ، من كل ما يثير الغثيان ، ويفضب الانسان . يفر به - هارباً غارباً - الى الغابات أو ادغال المارستان .

ان العالم الاسلامي - وقد كانت تحكمه قوانين الاحتمالات وتشطره اختلافات الفقهاء ، وتمزقه المذاهب ، وتقطع أوصاله الاجتهادات فردية كانت أو جماعية - بدأ يسترد انفاسه اللاهثة ، وجهده المكدود ، وخطواته الراكضة اللاعبة - التي طالما امشاهها على رؤوس الحراب ، وفي مفترق الطرق - في ظل هذه المؤسسة الوليدة الشرعية ، والتي انفرج عنها ، وتمخضها الفكر الاسلامي الصحيح المصفى ، الخالي من التعقيد والتعصب والمنبثق أصلاً من المنبع الأساسي للعقيدة ، والمصدر المتفق عليه بين رجال القرآن والحديث ، ورواد الفقه والشرعية وأساتذة الدين والايمان والذي اعتمدته الرسول صلوات الله وسلامه عليه بين أمته وجماعته مرجعاً لهم وقانوناً في قوله : « لقد تركت فيكم ، ما ان اتبعتموه لن تضلوا بعدي أبداً ، كتاب الله وسنتي » .

أقول : لقد توحد العالم الاسلامي ، واستراحت أمته ، في ظل ، وفي رحاب مؤسسة ، أهل الاستقامة ، أو « الفرقة الناجية » أو « الجماعة » التي نعتها الله تعالى بالخيرية في قوله تعالى : (كنتم خير أمة أخرجت

للناس) ، واعنى بها « الاباضية » مذهباً وسلوكاً ، وسنة وطريقاً ، وتعاملاً وتداولاً » .

وان المتبع لسلوك هذه الطائفة ، وتناولها للدين وتعاملها معه ، ليدرك من أول وهلة ، ويعتقد يقيناً انها الفرقة « الواحدة » - بين الفرق الثلاث والسبعين - التي ضمت جوانحها على الدين واستقبلته في صدرها ، ومارسته وتعاملت معه كاسلوب صحيح ، وصيغة وضيفة مضيفة ، ومن هنا لا عجب ان تمذهبت بها الحياة وأصدرت وأوردت كل شئونها الدينية والدينية من ثنايا ، - ومن خلال - ما نشير به وتدل عليه وتقف عنده ، وترشد اليه ، وتثقف فيه .

هذا وان للمذهب فقهاء وعلماء الاجلاء الفضلاء ، الذين توافروا على استنباط احكامه . وتوضيح مسائله من الكتاب والسنة واجماع السلف الصالح ، والذين ربطوا - عن منهجه وبرنامجه - شئون الدنيا بشئون الدين وأطالوا يد الاسلام - ببيضاء غراء - حتى التفت حول الأمة ، وأصابت كل شيء فيها بالتهذيب والتشذيب ، واحتضنتها ، وأحسنّت اليها ، كما دفعت عنها - وطاردت - كل دخيل أو غريب أو متلصص عليها ، أو متسلل الى جواهرها ومكنوناتها ، اما بقصد السرقة ، أو التلبس أو التدليس فيها وغشها ، أو العمل على نسفها تماماً ..

ولست في حاجة الى الاسترسال الطويل في بيان ما افادته الحياة عن طريق الفكر الاباضي ، ولا سيما في العمل على جمع كلمة المسلمين ، وتوحيد صفهم وانطلاقهم جميعاً من مبدأ واحد ، والى غاية واحدة .

وها نحن اليوم نرى من آثار هذا التفكك المذهبي والطريقة التي نعبد الله عليها ، والطريق الذي تقطعه ونمشيه الى تعاليه واداء واجباته ، ما يندى الجبين ويشيب الطفل ويذهل كل مرضعة عما ارضعت ، ويسكر

الناس ، ويدعو الى الأسى والأسف والفجيعة والمرارة ، فيما أصاب الدين .
وفيا أصاب المتدينين من جراء ما غرقوا فيه الى الاذقان ، من هذه
التشكيلات المذهبية والموديلات و « الشللية » .

لا شك ان هذا كله يمزق كيان الدين ، ويفتت وحدته ، ويقضي عليه
ويمزق بالتالي كيان المسلمين المتدينين ويفتت قوتهم وتماسكهم ، ويقضي
عليهم جميعا قضاء المبرم ، ويفنيهم الفناء الذي لا قيامة بعده أبدا .
وهذا حتما من فعل الابالسة الحبشاء ، أو السذج البسطاء أو أعداء
العقيدة والدين .

ولن يسترجع المسلمون مجدهم الغابر ، وأمهم الدابر وقوتهم
الذاهبة ، وشمهم الغاربة ، الا بالاعتصام بحبل الله جميعا ، وأن
لا يتفرقوا ، وأن يتحدوا فيما بينهم ، وان يتجمعوا في كنف اله
واحد ويجمعوا على عبادته ، وان لا يقلبوا وجوههم حائرين في
الأرض أو في السماء ، وأن يلبسوا الياقات المنشاة القابضة التي لا
تسمح لهم بالالتفات يمينه ولا يسرة وان يتركوا عبادة الاشخاص
والهرولة الى « الايديولوجيات » التي صنعها أشرار الناس .

حينئذ - وحينئذ فقط - يمكن للمسيرة الاسلامية أن تنطلق في ركب
قوي - قوامه أكثر من ألف وسبعائة مليون مسلم وعربي - الى غاياتها
الضاربة في أعماق الحياة والذاهبة . تطلعاتها الى مآتبات السماء - (قد
نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها ، فول
وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره) .
أقول : كان من اثر ذلك - أو كرد الفعل ، أو رجع الصدى لكل تلك
الشيطنيات ، « والنجاتف ، لكل هذه الكرنفالات » - ان انعكست هذه
الرؤية الكايبية المعتمة ناطقة معبرة عن التزق الشامل الخائق ، والخراب

الدهام الحائق ، الذي أحاط بالأمة وأصابها في شتى مرافقها واجهزتها ومؤسساتها وفي حياتها السياسية بالذات ، ولا سيما ، وعلى الأخص المنطقة العربية - من الخليج الى المحيط - التي يعايشها ويوطنها أكثر من مائتي مليون عربي ، الأمر الذي أطمع فيهم الأعداء وأغرى بهم السفهاء وجرم دائما الى الوراء والخلف وساقهم جميعا - وأبدا - الى الهلاك والختف .. وشد الأمة الى ما الله به علم .. فكثرت فيها الطوائف والنحل وتهاوت في مستنقعاتها « المجموعات » و « الشلل » وتناوح بين أطلالها الخراب ، وتنازعها « الهيات » و « الاحزاب » .

وهل يعقل يا قوم أن يتقاتل الاخوان ، أو يتقابل الشقيقان في معركة أو يختلف أهل البيت الواحد فيما بينهم أو أن ينشغلوا جميعا عن أمهم ، حتى يتسلل اليهم العدو ويمزق كيانهم ، ويقضي فيهم قضاءه ، ويعمل جاهدا على نحو معتقدم وشطب دينهم ، ومسحهم كهم من فوق خريطة الوجود ، وجغرافية الحياة ، كما نرى اليوم ونعايش هذه الأحداث المروعة ، في افغانستان وباكستان ، واندونيسيا وماليزيا ، وبلغاريا ، والهند وفي أطراف افريقيا وفي بعض الجيوب الاسيوية ، وخاصة في فلسطين ولبنان ، وفي الجبل وفي الجولان ؟ .. معارك في المغرب وفي الصحراء الغربية معارك في ليبيا وفي تشاد وفي جنوب السودان .. تحرشات ضارية بين سوريا والعراق .. والعراق وايران .. والاكراد والأتراك .. وكلهم ملمون واخجلاه !!

ولا شك ان من وراء هذا كله الاستعمار الكافر اللئيم ، من وراء هذا الصهيونية والشيوعية والصليبية والرأسمالية وكل من ينتمي الى هذا الطابور الغادر .. وواويلتاه وواسلاماه وواعروبته من كل هذا الذي أصاب المسلمين والعرب ، ومن كل

خطر راصد متربص ، مرتقب ، يجريه العدو المستعمر هنا
وهناك في كل اصقاع الأمة ، وفي كل بقاع العروبة وديار
الاسلام ..

واويلتاه هذه الأمة التي فجرت الأحداث جراحها ، ومزقت
الاختلافات أوصالها ، وتآمر عليها بعض ابنائها من محترفي
السياسة وعشاق الزعامة ومدمني اللعبات الصببانية والمكائد
الشیطانية ومن كل من يساوم على عرضه ، وأرضه ووطنه
بالجاه أو المنصب أو المال !!

ان العدو قد وضع في خطته ، ورصد في مفكرته ، ورسم في
استراتيجيته وسجل في موسوعته - منذ أن بدأ المشوار مع العرب والمسلمين -
كل هذه النتؤات ، والكأداءات في طريق المسيرة العربية المسلمة حتى
تتطل المسيرة ويتخلف العرب والمسلمون .. ودائما لا سلاح امضى واعمل في
مثل هذه المعركة - يستعمله العدو ويبارز به - الا سلاح الشحنة
والبغضاء والتدابير والتناكر ، الذي هب على ألف العرب والاسلامي بفعل
هذا العدو - والذي عصفت به أعاصيره ، فشرخ جدرانته وحطم أركانها ،
ومزق بنيانه وأتى على قواعده من الأساس وحتى أصبحت الأمة العربية
وبعض الدول الاسلامية أشبه بالاطلال والخرائب . التي يعيش فيها البوم .
وتعايشها الطوايط والخفافيش . والغربان والذؤبان وكل ما له ظفر
وناب أو مخلب . أو « فك مفترس » .

وما البوم . والطوايط والخفافيش . والغربان والذؤبان ومن له
الظفر ، والناب والمخلب والفك المفترس الا هؤلاء الذين يتقاسمون هذه
الأمة ، وهم مع الأسف من أبنائها ويتنازعونها فيما بينهم .. وكان الاجدر
بهم جميعا أن يدافعوا عنها كما يحرص كل من هذه الوحوش المتناوشة

المتهارشة والكواسر الضواري ، على أن يهر من هذه الأمة هبرة ، أو ينتزع منها بضعة أو يأخذ قطعة أو مضغة أو لقمة ، يسد بها جوفه النهم ويملاً بها كرشه الشره ، ويحشى بها بطنه الضخم المترهل الذي يقول دائماً بقولة جهنم ، (هل من مزيد) ؟ ..

يا أيها المسلمون ، ويا أيها العرب ماذا بقى لكم بعد ذلك ؟
يا أيها المسلمون .. لقد خدعكم العدو عن أنفسكم وعن ماضيكم وعن تاريخكم وعن اسلامكم . وعن عروبتكم ..

انسام انكم اتباع محمد ، واشياع أبي بكر وعمر ، وتلامذة عبد الله بن عباس ، وجابر بن زيد ، وعبد الله بن اباض واجناد خالد بن الوليد ، وابناء هؤلاء الاصحاب : معاذ بن أنس وعمار بن ياسر ، واسيد بن خضير ، وانس بن قتادة وأوس بن ثابت ، وإياس بن زيد ، والحباب بن المنذر ، وحوشب بن طحية وخارجة بن أبي زهير ، وخراش بن الصمة ، ورافع بن مالك ورفاعة بن رافع ، وزيد بن أرقم ، وزيد بن حارثة والطفيل بن مالك ، ومحمد بن سلمة ، ومعاذ بن جبل ، ومعن بن عدى ونوفل بن الحارث ، والنعمان بن بشير وعبد الله بن غرظطة وقبيصة بن ذؤيب ، وسعد بن عباد ، وسفيان بن بشر ، وأبي عبيدة بن الجراح ، وغير هؤلاء من الأفاضل الاخيار ، والصحابه الابرار الذين لفتوا وجه الدهر وغيروا مجرى المسيرة ، وفجروا ينابيع الخير في ربوع هذه الحياة .

يا أيها المسلمون في كل مكان .. أفيقوا من نومكم واستيقظوا من سباتكم الذي تغطون فيه غطيظ أهل الكهف وتنهبوا الى هذا العدو الشرس اللثيم الذي يزرع بين صفوفكم كل بذور الفرقة ، وكل أنواع العدواة ، وكل أصناف التحاسد والتحاقد ، ثم أخيرا يغرى بعضكم ببعض ، ويشعلها - بأيديكم أنتم - حربا ضروسا ، وغارات شعواء لا تبقى ولا تذر ..

والا .. فخبروني بربكم : ما هذه المعارك الدائرة الجائرة بين العراق وإيران ؟

ما هذه المعارك والحارب التي تتراقص عاصفة بين المسلمين بعضهم ضد بعض ؟

من الذي أشعل فتيلها ، وأوقد نارها ، وانتزع منها ذراع الامان لتنتقل على الأمة الاسلامية جبارة غدارة هكذا ؟ .

ان اعداء الاسلام والمسلمين هم من وراء كل ذلك .. وفي مقدمتهم الشيوعية والصهيونية ومن لف لفها ، ودار في أفلاكها .

ان الشيوعية والصهيونية هما المعسكران اللذان فتننا المسلمين والعرب ، واغريبا بعضها ببعض ، وحرضا ، أو سلطا البعض على البعض لجملة أسباب .. ومن أهمها :

(1) الحقد على الاسلام والمسلمين ، والعرب والعروبة فالشيوعية لا دينية والصهيونية كافرة .

(2) اقامة سوق للسلاح ، يتاجر فيه كل من المعسكرين على حساب الأمة الاسلامية ، والأمة العربية ، فالشيوعية والصهيونية تكسبان المليارات والمسلمون والعرب يخسرون ملايين الأرواح وملايين المليارات من الأموال .

(3) التخطيط السافر - أو المثلث المقنع - للاستيلاء على مصادر النفط في حقول الاسلام والعروبة ، وصرف - أو طرد - المسلمين والعرب عنها ، سواء كانوا ايرانيين أو عراقيين أو خليجيين أو عربا على العموم أو مسلمين عامة .

هل كان يمكن للشيوعية أن تضرب الافغان وتقتحم عليهم بيوتهم لولا العزلة والفرقة والغربة التي يعيشها المسلمون ؟ .

هل كان يمكن للشيوعية أن تقيم القواعد والترسانات في الوطن

الاسلامي لتتجمع فيها . وتضرب منها الاسلام . لولا تحادل المسلمين وتفرقهم ؟

لعلكم أيها المسلمون قد أصابكم الترهل والاسترخاء حتى طمع فيكم العدو ، وكرهكم الصديق . على الرغم من كثرتكم وألف وخمائة مليونكم اضافة الى مائتي مليون عربي حتى صدقت فيكم نبوءة الرسول ﷺ في قوله :

« يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على القصاع قالوا : أو من قلة فينا يا رسول الله ؟ قال : لا ولكنكم غثاء كغشاء السيل ، وليزغن الله مهابتكم من قلوب أعدائكم ، من حبكم الدنيا وكرهية الموت والجهاد » . وأنتم أيها العرب في كل مكان :

يا أبناء عمان ويعرب ، يا أبناء ربيعة ومضر ، يا أبناء الغوث بن مالك بن يزيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود عليه السلام .

يا أبناء الازدزينة الدنيا ، وفخر الزمان ، يا أبناء العباقرة العباهلة ، والاقبال الصيد ، والغر البهاليل والابطال الميامين نظرة متأنية الى تاريخ أسلافكم واجدادكم ورجعة الى الماضي لاستيعاب مفاخركم واجدادكم ، ووقفه مع العالقة الشوامخ من آبائكم وأجدادكم الذين نشروا مكارم العرب ، ورفعوا فضائل العروبة عالية خفاقة فوق كل الاعلام . وعلى مر الدهور والاعوام .

أيها العرب ، ماذا عساه يقول عنكم الآباء والاجداد ؟ ما عساه يقولون عنكم اليوم ، وبأي لغة يقولون ، وما عساه تعتذرون اليهم عن تفرقكم وتزقكم وضياكم هكذا أوزاعا واتباعا واصفارا واصفارا ؟

وهكذا تعاون الذهول العربي ، مع التريص اليهودي والصليبي

مع ضفائن الدول الكبرى من مثل امريكا وروسيا ، أو الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي .

من أجل هذا كله - وحفاظا على العروبة والاسلام - حملت الاباضية فوق كتفها قضية القوم جميعا ، مسلمين وعربا وحملتهم على الالتزام بالحجة واحترام أبعاد الجادة ، وحمتهم من التردى والهاوية واجتازت بهم هذا الطريق المحوري الصعب والمنعطف التاريخي الهادر ، الذي يشد الى دواماته ويبتلع في لهاته ومثاهاته من لم يلتزم بقواعد المرور ، ومن لم يخش عاقبة الأمور .. وذلك بخالفة الدين واتباع الشياطين .

ومن هنا فإن الأمم التي احتضنت الاباضية لم تنزل وستظل تلح على انجاز ما خطته وانفاذ ما رسمته . وإكالم ما بدأته وخططت له ، وذلك عن طريق العقيدة والسلوك المنهجي المتوائم مع المذهب الصحيح الذي تتراءى بين أبعاده وتتضح في نطاقه وأماده صور الحياة الاسلامية الكريمة التي أدرك بها السابقون الشوط والشأو ، وحقق بها اللاحقون ، الرجاء المنشود والأمل الحلو ، واعنى بهذا المذهب « مذهب الاباضية » الذين تناولوا به الدين في سهولة ويسر ، وتعاملوا معه بطول نفس ، ورحابة صدر ، وتعاطوه برنامج عمل يقطعون به مفازات الحياة وصحراءها ، في حراسة الدين ورعاية العقيدة وعناية ساهرة يقظى من تعاليم الاسلام فلم يتشددوا ولم يتعصبوا ولم يغالوا ولم يفرقوا ، وكذلك لم يفرطوا في معتقدهم أو يتناولوه بضعف أو يتعاطوه بميوعة واسفاف وانما كانوا بين ذلك قواما .

فلقد استنبطوا مذهبهم من القرآن الكريم ، واقتبسوه من السنة المطهرة ، وسلكوا في مسيرتهم الى عبادة الله نفس الطريق

التي سلكها الصحابة وارتضاها الاجماع ، وحرصوا كل الحرص على أن تكون خطواتهم على ذات الدرب ، وفي نفس الطريق وفوق (إفريز) الشارع ومع السبيل التي قطعها الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، في مشواره الطويل وشوطه البعيد ، جيئة وذهوبا ، على مدى مسيرته المباركة ورسالته الميمونة عبر الثلاثة والعشرين عاما ، ومع تحريره الصدق وانتهاج الحق ، ومجاهدة النفس ، وريادة المعاناة والرياضة والترويض على المشقة والمقاساة ، حتى استبان لهم الأمر ، ووضح أمامهم الطريق . وتبين للعالم أجمع - أو المخلصين المنصفين - أن هؤلاء هم « أهل الاستقامة » أو هم في الواقع - وعلى الحقيقة - « الفرقة الناجية » التي أخبر عنها الصادق المعصوم والتي أمر الله رسوله أن يختارها وينتهجها سبيلا يوصل الى عبادته ومرضاته في قوله تعالى (قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين) .

والمذهب الاباضي ، ليس عجيبا في الدنيا ، ولا غريبا عن الحياة وانما هو العملة الصحيحة التي يجب تداولها وتناولها والتعامل بها في شتى الأنحاء ، وفي جميع المناخات والاجواء وهي بمعون الله عملة لا ينالها التزييف أو التلبيس ولا يطولها الوضع أو التدليس ، ولا يجوز في منطقتها العمل بين بين ولا التنكر في وجهين ولا المشي على الحبلين ، فالحق عندها واحد لا يتجزأ وكل لا يتوزع .

وحينا أشبل المسلمون الامناء والاتقياء الاوفياء - بعطفهم السابغ ورعايتهم اليقظى - على تعاليم هذا المذهب وأوصوا باستمراريته وحمايته ، كان من شأنهم في هذا كله ، أن يحيطوا هذه المؤسسة الشرعية بكل أسباب

الرعاية والعناية وأن يحرسوها بكافة الضمانات والوقايات ، حتى تعشوب
افرعها وتطول اذرعها وترع اغصانها وتشد سوقها ، ويتكاثف ظلها
وتنضج خيراتها وثمارها فيستظل بها الحران ، ويأكل منها الجوعان ويشرب
من زلالها وسلسيلها كل عاطش اسوان ويخلد الى تعاليها وآدائها ،
ومذهبيتها ، واستاذيتها كل تائه أو ضال أو حيران في بيداء هذه الحياة وفي
صحرائها الشاسعة الواسعة ..

ان الاسلام في تشريعاته ، انما جاء لتنظيم حياة البشر حتى يستحقوا
أن يكونوا خلفاء الله في الأرض ، فنظم العلاقة بين الخالق والمخلوق . وبين
المخلوقات بعضها مع بعض ونظمها علاقة أكيدة بين الانسان وربّه ، وبين
الانسان ونفسه ورأى جانب المادة كما رأى جانب الروح وأسهم باسهاب
في تنظيم حياة الناس في العبادات من صلاة وزكاة وصوم وحج ونظم
حياتهم كذلك في المعاملات من بيع وشراء ، وسلم وقرض وشفعة ومزارعة
واجارة وهبة ووصية ونذر ووقف ، وتوريث وحدود وزواج وطلاق ،
وعتق وتديبر ، وقصاص ودية ، كما أشرف على بواعث ودواعي العمل لدى
الانسان في سلوكه واخلاقه وقوى فيه جوانب الخير وزجر عنده غيلان
الشر ، وجعل المسلم أخا المسلم لا يخذله ولا يظلمه ولا يسلمه . وحضه على
أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وأكد على حتمية ازالة أسباب العداوة
والبغضاء ، والشحناء بين أبناء الأمة الاسلامية ، ودعا المسلمين جميعا الى
كفالة الفرد ، وان الفرد في ذمة الجميع وانه لبنة في كيان الأمة وان الأمة
هي الفرد الدائر المتكرر .

كل ذلك من أساسيات الاباضية ضرورة انها هي الدين الصحيح في
اعلا أطواره . وأهى مراحل وأدواره ، وانها قامت في الحقيقة على تبنى تلك
الفضائل العبادية والمعاملية والسلوكية عموما والعمل على ترجمتها سلوكا

وعلا وتطبيقا وفعلا .

الاباضية تدعو الى التسك بكل ما جاء به الاسلام من مثل واخلاق ،
وقيم ومبادئ واخلاقيات ومناهج ، تدعو الى الاسلوب الامثل ، والحوار
الافضل ، والملاينة في الجدل والنقاش للوصول الى الحق والصواب ، تدعو
الى طاعة الحاكم وعدم الخروج عليه بأي حال من الاحوال إلا إذا عصى الله
بالفعل أو بالاقرار فيجب نصحه وتوجيهه فقط لا غير .. خوف الفتنة
والاضطرابات .

والاباضية دائما تهيم المسلم بأن يكون مع الله في معاملاته
وعباداته ، في الجامع وفي الشارع ، في الحقل والمصنع ، في المتجر
والمعمل ، في المعهد والمدرسة والجامعة - وحده أو مع الناس - في
كل حركاته وسكناته ... تدعو الى مجتمع نظيف شريف ، نزيه
عفيف يكره الفوضى والديماجوجية ، تسوده المحبة ويظله
التراحم ، يمقت الغش ، ويشور على الرشوة ، ويحرم المحتكر
ويحكم المتجر المتحكم في أقوات الناس وفي ضرورياتهم . الاباضية
هي كل هذا وأكثر من هذا .. هي الفيصل والحكم الذي يبدي الرأي
واضحا في معارك المسلمين ومشاكلهم ، هي الترجمة الأمينة
الصادقة لسلوك النبي ﷺ وخلفائه الراشدين وأصحابه الأئمة
الهداة المهديين .. هي عودة بالمسلمين من جديد الى عهد النبوة
الأول في صدر الاسلام ونضارته .. هي اذابة الفرد المسلم في ألف
وسبعمئة مليون مسلم ، وهي بالتالي اذابة هذه الملايين الحاشدة
الهائلة في الفرد الواحد المسلم ، بحضارته ورعايته وكفايته
وكفالاته .

هي الحقيقة سافرة ، والعقيدة ناهية آمرة ، لا تجامل على حساب

الدين ، ولا تداهن أو تماليء ، بل تجاهر بالحق صادعا وبالشرع وفقهه ناصحا وازعا ، وتخطب الناس جميعا على حد سواء لا فرق بين حاكم ومحكوم ، وتابع ومتبوع ، وسيد ومسود لا فضل لعربي على اعجمي الا بالتقوى ، والعمل الصالح ، ومن هنا عاداها أراذل القوم والسفهاء من الناس تماما كما عادى الكفار أصحاب الرسالات والنبوات في كل زمان ومكان .. ذلك لانها كشفت عن سؤاتهم وسيئاتهم وفضحت عورتهم وسحبت البساط من تحت أقدامهم لا سيما الحكام والقائمين على الأمور ، حين أرتهم للرئين المشاهدين حكما من « كرتون » وقائمين على الابتزاز والاكنتاز وخطف اللقيات من أفواه المحكومين ، ولقد عانت الاباضية من كل هؤلاء ما عانت عبر مسيرتها الأميدة البعيدة . وعلى مدى الأشواط الطويلة الضاربة في أعماق السنين وفي أغوار الماضي والتاريخ حتى يومنا هذا !!

عادوها لأنها تجهر بكلمة الحق وتنطق بالصواب ولا تحب الجهر بالسوء من القول ..
عادوها لأنها تريد أن تطبق شرع الله وتحقق المفاهيم الاسلامية الصحيحة .

عادوها لأنها تعالج كل الأمور بموضعية صادقة بعيدا عن التهريج والهوى والاسفاف ..

عادوها لأنها تعمل جاهدة على تأكيد العدل والتبشير به بقدر ما تحارب الظلم والظالمين .. وسامح الله أصحاب بعض المذاهب الأخرى الذين انضوا تحت الوية الحكام الباطشين فقالوا بمقولاتهم ، واتهموا الاباضية كما اتهمها هؤلاء وشنعوا على أتباعها وأنصارها بأنهم من الخوارج المغالين والصقوا بهم كل النقائص

والمثالب ، تقربا الى اسيادهم وارباب نعمتهم الذين سلطوهم - جبارين ظالمين - على هؤلاء الاخيار الابرار وعلى مذهبهم الاباضي الذي أعاد للاذهان عهد النبوة والصحابة ، وأرانا صورا صادقة للاسلام في مرحلته الاولى على يد محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ايدي رجاله الملتفين حوله ، المناصرين له والذين قال الله فيه وفيهم : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيأثم في وجوههم من أثر السجود) .

لقد شرق هذا المذهب وغرب ، وثأل وجنب ، وكان من السابقين الاوائل الذين نشروا الدعوة الاباضية وبشروا بها في الشمال الافريقي - في كل من الجزائر وتونس وليبيا والمملكة المغربية - الامام سلمة بن سعد الحضرمي الذي شوق بربر المغرب الى شد الرحال ، والتوجه الى المشرق لتلقى علوم المذهب من الامام ابي عبيدة مسلم بن أبي كريمة ، وتبعه كذلك كل من الائمة عاصم السدراقي ، واسماعيل بن درار الغدامسي ، وابي داود القبلي النفزاوي وعبد الرحمن بن رستم الذي أسس الخلافة الاباضية - فيما بعد - بتيهت ، ومن قبل هؤلاء العالقة حملة العلم ورواد المذهب ظهر في عهد مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية ، الحارث وعبد الجبار زعما الاباضية في عهدهما واللذان حاربا عامل طرابلس الاموي واستوليا على المدينة بعد هزيمته . وفي سنة 140 هـ . وبعد استشهاد الامامين السابقين - بايع الاباضيون أبا الخطاب عبد الأعلى ابن السمح الذي حارب العباسيين وانتصر عليهم في بعض معاركه معهم ، وفي سنة 154 هـ بويع الامام أبو حاتم يعقوب بن حبيب والتف حوله أتباع المذهب الاباضي من جميع أنحاء شمال افريقيا وبالاخص أهل الجزائر وامتد سلطانه شرقا الى برقة ، وغربا

الى القيروان ، وجنوبا الى فزان وحارب العباسيين وهزمهم في معارك كثيرة ، الا انهم أحاطوا به أخيرا في جبال نفوسة وقتلوه مع ما تبقى من جيشه قريبا من ظاهر القلعة وككلة ، وذهب الى رضوان الله شهيد الحق والواجب !!

ان اباضية اليوم في المغرب العربي يسكنون جبل نفوسة وزوارة من طرابلس ، وجزيرة جربة من تونس ووادي ميزاب بالجزائر كما ان للاباضية كذلك ثقلا كبيرا في جمهورية مستقلة ببلاد القوقاز ، هذا الى جانب الأعداد الضخمة من اتباع المذهب بجزائر افريقيا الشرقية . وأيضا في جزر زنجبار وفي الخليج العربي وحضرموت ، هذا خلاف الملايين الاباضية في عمان ، اما في مصر وفي السعودية وفي العراق ، وفي بعض البلاد الاوربية فللاباضية فيها كذلك رحلات واقامات ووصايا وتعاليم وانصار واشياع .. أو ليست الاباضية هي مذهب الفطرة النقية البيضاء ، والجملة الصافية البهاء ؟

(صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة) .

واني لأعجب لعلماء المسلمين - ولا سيما علماء الازهر والزيتونة والقيروان ، والجامعة الاسلامية والجامعات والمعاهد المتخصصة في دراسات الاسلام ، من تجاهل هؤلاء جميعا هذا المذهب النقي التقى الذكي ؟ كيف طأعتهم قلوبهم وعقولهم في أن يحجموا أو يتلکأوا عن الاسراع هرولة الى رحاب الاباضية ، والاستمتاع بما فيها من فقه وتشريع وأصول واستنباط ، وتبصرة حقيقية بالدين ، وتوعية مستوعبة لكل أفراد المسلمين ؟ كيف بهم لم يهتموا في نشر روائع هذا المذهب ولم يشاركوا في التبشير به ، والالتزام بمنهجه ومشربه ؟ انهم ان

استوعبوه وادركوا بركاته وخيراته ثم تقاعسوا عن نصرته ،
يكونون مقصرين في أمر الدعوة ، وتسقط عنهم حصانة العلم
وأهلية العلماء وان لم يستوعبوا المذهب بالمرة ، ولم يقدروا على
الاحاطة به واستقطابه وتغشى عيونهم عن أبصاره والتطلع
اليه ، يكونون قد خيبوا أمل الناس فيهم ولم يعودوا العلماء بل
يصبحون الجهلاء وسيكون جهلهم حتماً وحينئذ « جهلاً مركباً »
ويصدق فيهم - أو عليهم - قول القائل : « إن كنت لا تدري فتلك
مصيبة ، أو كنت تدري فالمصيبة أعظم » .

ان الاباضية على الوجه الصحيح هي الرؤية الواضحة لصفاء الاسلام
ونقائه ، وهي كذلك ابجدية الدين ، والمدخل الى العقيدة وبالتالي فهي
العقل المطلق الكلي الذي يستشار في أصعب المشكلات دينية كانت أو
دنيوية ، لأنه أقوى من المشكلات ، ولأنه يطوق المشكلات ثم يقتحمها
ويفض اشتباكها ويحلها حلاً سليماً متكاملًا ترضى عنه جميع الأطراف
بقناعة وإيمان ويقين .

ولقد كانت الامامة في المذهب - على مستوى العالم الاباضي كله من
مشرقه الى مغربه ومن شماله الى جنوبه - تقوم مقام الخلافة في صدر
الاسلام والعصور التالية في الاجراءات والمضامين وفي جمع كلمة المسلمين
وتوحيد صفوفهم ، وتقوية جبهاتهم الداخلية والخارجية ، يصدرون عنها ،
ويقضون عليها ، ويعيشون في رحابها ، ويمارسون من خلالها شؤون الدنيا
والدين .. وكان الامام على الحقيقة هو الخليفة الراشد .. وما زالت هذه
الخلافة أو الامامة تنتقل من عصر الى عصر بدءاً من الامام جابر بن زيد
حتى القت بمقاليدها اليوم طائفة مختارة - عن طريق العلماء الأفاضل

والزعماء المصلحين والأمراء النابهين من أهل الحل والربط - الى الامام
الجليل والعالم الفذ ، والعبقري النابغة ورجل المواقف والمكرمات غالب بن
علي بن هلال الهنائي ، الذي حورب واضطهد ، وضيق عليه ، وامتنح ،
الا أنه صبر وصابر ، ورابط وثابر في سبيل عقيدته ، ومن أجل دعوته
وامامته ، شد الله أزره وقوى ظهره ، وأظهر أمره (ليحق الحق ويبطل
الباطل ولو كره الكافرون) .

وأما أنتم أيها الاباضيون - في كل زمان ومكان في المغرب العربي وفي
مشرقه ، وفي افريقيا ، وفي آسيا ، وفي كل بلد يذكر فيه اسم الله ،
ويتهادى الأذان من فوق مآذنه ومنابرهِ - أيها الاباضيون .. (يا أيها الذين
أمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) .. (ولا تنهوا ولا
تحزنوا وأنتم الاعلسون) . وسلام الله عليكم يوم ولدتم وعشتم ، ويوم
تموتون ، ويوم تبعثون احياء شهداء في جنة عرضها الأرض والسماء ، وفي
مقاعد الصدق والحق عند مليك مقتدر ..

السيد عبد الحافظ عبد ربه

من علماء الأزهر

رقم الإيداع

١١٥/٩٢م ج١

إقرأ في هذا الكتاب للمشايخ والأساتذة رأيهم في الاباضية

- الشيخ إبراهيم أبو اسحاق أطفيش (الجزائر)
- الشيخ أحمد بن حمد الخليلي (عُمان)
- الدكتور ابراهيم عبد العزيز بدوي (مصر)
- الدكتور أبو القاسم سودة (الجزائر)
- الشيخ أحمد توفيق المدني (الجزائر)
- الشهيد الإسم سيد قطب (مصر)
- الدكتور شكري فيصل (سوريا)
- الشيخ عز الدين التنوخي (سوريا)
- الشيخ عبد الحافظ عبد ربه (مصر)
- الشيخ علي يحيى معمر (ليبيا)
- الدكتور عبد العزيز المجذوب (تونس)
- الدكتور عوض محمد خليفات (الاردن)
- الدكتور عمر الحاج صالح با (السنغال)
- الاستاذ مالك بن نبي (الجزائر)
- الاستاذ فهمي هويدي (مصر)
- الدكتور محمد صالح ناصر (الجزائر)

الناشر

مكتبة الاستقامة